عبدالوهاب مطاوع

أرجوك.. أعطني عمرك

الدار المصرية اللبنانية

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: أرجوك أعطني عمرك.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لمقالات الراحل

عبد الوهاب مطاوع

أرجوك.. أعطني عمرك

عبدالوهاب مطاوع

□

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّك الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

صدق الله العظيم

مقدمة الكتاب..

في هذا الكتاب فصل بعنوان «أرجوك.. أعطني عمرك»، قلت فيه إن الإنسان يحتاج لأن يعيش حياته أكثر من مرة لكي يجيد فن الحياة ويحسن التعامل مع ما يواجهه فيها من اختبارات وتناقضات وألغاز محيرة.. ولأن الأمنية مستحيلة، فإنه يحاول أن "يطيل" عمره المحدود بإضافة أعمار الآخرين إليه.. أي بإضافة ما تعلمه الآخرون من دروس حياتهم وتجاربهم إلى ما تعلمه هو من أخطائه وعثراته، فكأنها يضيف بذلك عصارة أعمارهم إلى عمره، وكأنه حين يطلب النصيحة من غيره، فكأنها يرجوه أن " يمنحه عمره " ليستفيد بدروسه وحكمته فيها يواجهه من مواقف وامتحانات.

وفي هذا الكتاب أروي لك بعض تجاربي وخواطري وذكرياتي خلال رحلة العمر، لعلك تجد فيها بعض ما تستفيد به أو يستحق التأمل والتفكير، كما استفدتُ أنا من قبل بتجارب كل من قرأت لهم خلال رحلة السنين، وكل من اقتربت منهم على المستوى الشخصي واستمعت باهتمام شديد إلى ذكرياتهم وتجاربهم الشخصية وآرائهم في الحياة.

فالإنسان يتفاعل إراديا ولا إراديا مع كل من يتعامل معهم في علاقاته الشخصية، وما يلاحظه في الحياة ويرقبه عن قرب في حياة الآخرين، أو يقرأه مسطورا على الورق في الأدب والتاريخ وكتب التراجم الشخصية.

فإذا رجوتك ذات يوم صادقا أن تعطيني عمرك فلا تظن بي الظنون، وإنما ثِق أنني أطلب منك بهذا الرجاء خبرتك وثمار تجاربك الشخصية ودروس حياتك.. وكل ذلك قد تجد بعضه في هذا الكتاب.. وقد ترى - كرما منك وفضلاً - أن نتبادل الاستفادة، فتنتقل لي ذات يوم خبرة حياتك وتضيف عمرك السعيد إلى عمري المكدود.. وشكرا.

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وَدّعْ هوَاك

كنت في زيارة لمدينتي الصغيرة بالوجه البحري..

حين وقعت عليه عيناي خيل إليّ أنني أعرفه، لكني لا أتذكر اسمه.. أما هو فلقد خيل إليّ أيضا أنه قد عرفني، وإن كان لا يتذكر اسمي.. وحين حييته رد عليّ التحية بأدب، ولكن بلا حرارة، وقالت لي ابتسامته الخفية بلا كلمات: شكرا، لأنك قد عرفتني بعد كل هذه السنين.. لكن أرجو أن تكتفي بالتحية العابرة وتنصرف إلى حال سبيلك، فلقد أصبحنا من عالمين مختلفين.. ولا أمل في استعادة الماضي البعيد الذي لا يرجع أبداً!

لماذا تخيلت هذا الحوار الصامت معه؟ هل لأن حال ذلك الرفيق القديم من رفاق الصبا لا يمكن أن يوحي بغيره؟

ربما.. فقد كان «درويشا» من الدراويش الذين يقضون يومهم كله إلى جوار مسجد سيدي إبراهيم الدسوقي مستغرقين في تأملاتهم وسبحاتهم، ويستعينون على الحياة بتجارة هامشية بسيطة قد تباع وقد لا تباع. وبالرغم من ذلك فإن في الوجه صفاء غريبا.. وفى القلب فراغا من الدنيا ومطامعها وهمومها يحسده عليه كل ذي قلب حكيم، فكيف تفرقت بنا حظوظ الحياة على هذا النحو فأصبح هو هذا الرجل الجالس في سكون على رصيف هذا المسجد وأصبحت أنا ذلك الرجل اللاهث دوما في سباق الحياة! ولماذا غبطته على صفاء روحه وسلامه النفسي.. وفراغه من هموم الدنيا؟!

إنه ليس الوحيد بين من جمعتني بهم الحياة بالصدفة بعد 40 عاما أو تزيد من طفولتنا المشتركة، فتأملت كيف اختلفت بيننا حظوظ الحياة، وشعرت نحوهم بالحنين القديم، وتمنيت لو استطاعوا أن يتجاوزوا حاجز السنين الوهمي ويرجعوا إلى مودتهم السابقة معي حين كنا صغارا نلعب في الشوارع ولا ندري ماذا تخفي لنا الحياة في قادم الأيام؟

فمنذ سنوات كنت مسافرا بالقطار من القاهرة للإسكندرية، فإذا ببائع للمجلات القديمة يدخل العربة منشدا بصوت جميل بعض الكلمات المنظومة ليروج بها لسلعته البسيطة.. فما أن وقعت عليه عيناي حتى تذكرته، وسرت البهجة في روحي.. إنه زعيم أطفال الشارع في الزمن القديم، لم تكد السنون تغير الكثير من ملامح وجهه الأسمر أو لمعة الذكاء البادية في عينيه.. وها هو يستخدم صوته الجميل وبراعته القديمة - التي طالما بهرنا بها ونحن صغار - في كسب الرزق والتحايل على الحياة، فكيف لم تؤهله مؤهلات الزعامة القديمة لأكثر من هذا الحظ القليل من حظوظ الحياة؟ لقد راقبته مبتهجا في انتظار أن يصل إلى مقعدي، فأستوقفه وأستعرض ما معه من مجلات وأشتري بعضها، ولو لم أكن في إليه.. وأسأله خلال ذلك عن أحواله وحكايته معالأيام، وأتبادل معه بعض.. فما أن اقترب مني ولمحني حتى لمع بريق التذكر في عينيه الذكيتين ووشت ملامحه بابتسامة حيية، وقبل أن أنطق بكلمة كان قد تجاوزني في خفة إلى من بعدي بغير أن يتوقف أمام صف المقاعد الذي أجلس فيه.. أو الصف الذي يليه، ثم واصل عرض

بضاعته البسيطة وسمعته يغني من بعيد: ودع هواك وانساه وانساني، عمر اللي فات ما حيرجع تاني.. يا مجلات بربع جنيه المجلة!

فهل كان يقصدني بهذه الكلمات الموحية، ويريد أن يقول لي إنه لا أمل في تجاوز الفوارق الاجتماعية التي قامت بيننا، فأصبحت أنا من ركاب القطار وهو من باعة الأشياء البسيطة فيه؟ أم هل أراد أن يعفي نفسه من حرج رؤيتي له وهو يمارس عمله الهامشي هذا، بعد أن كان الزعيم المبرز بيننا ونحن أطفال صغار لا فوارق بيننا ولا تفاضل إلا بالمهارة في اللعب!

ولماذا حرمني من بهجة استرجاع هذه الذكريات السعيدة معه لبعضالوقت.. ومن يُدريه أنني مازلت لا أخلو من إعجاب قديم بمهارته وذكائه وخفة ظله، التي مازالت تنعكس على طريقة ترويجه لسلعته البسيطة؟

ومن قال له إنني أقوّم علاقتي بالرفاق القدامى بحظوظهم من الحياة، ومقدار ما حققوه من نجاح في حياتهم العملية؟

إن من بين رفاق طفولتي وصباي من أصبحوا الآن رجال أعمال قادرين، أو شغلوا أكبر المناصب في الجيش والشرطة والحكومة والجامعات، ومن بينهم كذلك من لم يتجاوز نصيبهم من الحياة مثل هذه الأعمال البسيطة والهامشية، كهذا الدرويش السعيد وهذا البائع الجوال في القطارات.. وذلك الملاحظ لموقف سيارات الأجرة في المدينة الصغيرة.. وذلك الموظف الصغير الذي لم يحقق طموحه العملي في الوظائف الحكومية، فعوضته الحياة عن ذلك بثلاثة أبناء ناجحين من الأطباء والمهندسين.

فمن قال لأصحاب الحظوظ القليلة في الحياة إنهم فقدوا جدارتهم بصداقة الرفاق القدامى لمجرد أن الحياة قد منحتهم بعض ما حجبته عنهم، ولماذا يستسلمون لهذا الحاجز الوهمي الذي يشعرهم- خطأ- بانعدام جدارتهم بمثل هذه الصداقة؟!

وما هي مقاييس الفشل والنجاح في الحياة العملية؟

هل ينحصر النجاح فقط في النجاح المادي والعملي في الدنيا؟

وأليست السعادة والتوفيق في الحياة الخاصة والانطلاق، والسلام النفسي والابتهاج بالحياة غايات غالية كذلك، تهفو إليها نفوس المحرومين منها؟

في عام 1965 كان جمال عبد الناصر ملء الأسماع والأبصار في أركان الدنيا الأربعة، ولم تكن هزيمة يونيو 1967 قد وقعت بعد فقصمت ظهره ونالت من هيبته ومكانته، حتى قال بعض زملائه القدامى إنه قد مات في يونيو 1967، ودفن في 28 سبتمبر 1970 تاريخ وفاته الحقيقي. وقرر زملاء دفعة عام 1938 من الكلية الحربية أن يحتفلوا 27بمرور عاما على تخرجهم، فأقاموا لذلك حفلا ودعوا إليه زميل دفعتهم عبد الناصر، وجاء الزعيم فصافح زملاء الدفعة القدامى، وحين جاء الدور على الفنان أحمد مظهر، وكان هو الآخر في قمة نجوميته وبريقه الفني في ذلك الوقت، حياه عبد الناصر وقال له:

- إنت اللي فلحت فينا!

وضحك زملاء الدفعة واعتبروها نكتة ظريفة من رئيس الدولة لكنها لم تكن نكتة ولا مجاملة.. فلقد كانت حياة أحمد مظهر أكثر بهجة وسعادة ومتعة من حياة رئيس الدولة الجافة المثقلة بالهموم والقيود والمسؤوليات، وكان عبد الناصر يقول لزملاء دفعته بهذه العبارة ما قاله أبو الطيب المتنبي منذ مئات السنين: إني بما أنا باك منه محسود!

وفي التاريخ الإسلامي قصة تنفيها بعض المصادر وتثبتها مصادر أخرى عن ثلاثة من رفاق الصبا جمعت بينهم الصداقة والمودة في فارس في القرن الخامس الهجري، وتعاهدوا فيما بينهم على أنه إذا أصبح لأحدهم شأن في المستقبل أن يمد يد العون والمساعدة لزميليه، ثم دارت الأيام دورتها فأصبح أحدهم وزيرا، وجاءه رفيقا الصبا يستنجزانه الوعد، فسأل كلا منهما عما يريده لنفسه، وكان أحدهما شاعرا يجري وراء عرائس الخيال ولا مطمح له في جاه ولا سلطان، فطلب منه أن يجري عليه ما يكفيه مؤونة العيش في رخاء، فأجابه إلى ما طلب.

وكان الآخر طموحاً ومتطلعاً إلى الجاه والسلطان، فطلب منه أن يوليه عملاً في ديوانه، واستجاب له، فلم يمض وقت طويل حتى بدأ يصطنع لنفسه الأتباع ويتآمر على اغتيال صديقه القديم، ثم فر بعد انكشاف مؤامرته وأسس فرقة الحشاشين المعروفة في التاريخ، التي عمدت إلى اغتيال خصومها في الرأي غيلة، واحتمى مع أتباعه بحصن «الموت» الجبلي المنيع.. وكان من بين من اغتالهم الأتباع ذلك الوزير الذي مد إليه يد العون قبل سنوات، فأما الشاعر الذي لم يطلب من الحياة سوى العيش في سلام، فقد كان عمر الخيام.. وأما مؤسس فرقة الحشاشين الذي عاش حياته حتى مماته إما محتميا في الحصن أو فارا من جنود الحاكم حتى مات فهو الحسن بن الصباح، وأما الوزير الذي اغتاله رفيق صباه القديم فهو الوزير السلجوقي نظام المُلك.

وأما لو سألتني من من هؤلاء الرفاق الثلاثة هو الذي أفلح بحق وفاز بأفضل نصيب من الحياة بينهم؟ لأجبتك على الفور: إنه عمر الخيام.. الذي عاش حياته في وداعة.. وأثرى الحياة بأشعاره الجميلة وتأملاته الفلسفية التي بقيت على مر الزمن. ولا عجب في ذلك، لأن معايير النجاح نسبية في النهاية وليست مطلقة، وكذلك مطالب الحياة بالنسبة للأشخاص، فما يعتبر بالنسبة لإنسان هدفا تافها، قد يعتبر بالنسبة لشخص آخر غاية المنى، ولهذا قال الكاتب الإنجليزي الساخر جوناثان سويفت مؤلف رواية «رحلات جاليفر» الشهيرة: «إن الفقير قد يتسول كسرة خبز، أما الثري فإنه يتسول مملكة»!

وقال الإمبراطور الروماني الحكيم ماركوس أورليوس: «يعجب العنكبوت بنفسه إذا اصطاد ذبابة، ويتباهى رجل بنفسه بأنه اصطاد أرنبا، ويفرح آخر إذا أمسكت شبكته بسمكة، ويسعد ثالث إذا انتصر في معركة أو فتح مدينة»!

وفي كل حالة هذه الحالات، شعر كل إنسان من هؤلاء بأنه قد حقق هدفا عزيزا فشعر بالرضا عن نفسه، وهذا هو المطلوب دائما: الرضا عن النفس، وعما أتيح

للإنسان من حظوظ الحياة. وأنا شخصيا أعتبر النجاح الحقيقي في الحياة الذي يستحق الكفاح من أجله والسعي إليه.. هو السعادة الشخصية والعيش في سلام مع النفس ومع الآخرين، أيا كانت الأسباب التي أتيحت للإنسان خلال رحلة الحياة.

ولهذا فإني حين قرأت رأى الفيلسوف الألماني ماكس نوردو في النجاح: «يمكنني أن أحصر النجاح في أن يكون الإنسان محترما وذا قدر عظيم في نظر الكثيرين من الناس»، قلت لنفسي: إنه لا أحد يكره أن يكون محترما وذا قدر عظيم بين الناس، ولكن ماذا عن السعادة والرضا عن النفس وعن الحياة يا سيدي الفيلسوف؟

وماذا يفيد الإنسان أن يكون محترما وذا قدر عظيم عند الناس، وهو تعيس في حياته الخاصة، وحزين القلب، ومنغص البال والنفس بأطماع وطموحات.. يتعذب باللهاث المستمر لبلوغها دون طائل، لأنه كلما نال مطلبا لم يسعد بما ناله.. وإنما تطلع لما هو أبعد منه بغير أن يشعر بالرضا أو الاكتفاء؟!

لقد كان الإمام الفقيه ابن قيم الجوزية يقول: «الرضا هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام».. وحين قرأت هذه العبارة الحكيمة هتفت صامتا: صدقت والله يا مولانا الإمام.. فالمهم حقا هو سكون القلب وسلام النفس، سواء أكنت وزيرا أو خفيرا، ولن تستمتع أبدا بسكون القلب إذا خالطه الكره والحقد والغل والطمع فيما بأيدي الآخرين، والسخط على ما أتاحته لك الحياة من أسباب، لأن «كره الآخرين طرد إرادي للسعادة» – كما يقول الكاتب الفرنسي بول فاليري - كما أنك لن تعرف النجاح الحقيقي أبدا إلا إذا سعيت إلى أهدافك في الحياة بالطرق المشروعة، وبذلت كل جهدك لتحقيقها وأنت تقول لنفسك: أديت واجبي وبذلت غاية جهدي، وليس لي من الأمر بعد ذلك شيء، فإن هطلت على ثمار الكفاح، فشكرا للمانح العظيم جل شأنه، وإن تباطأ جني الحصاد فلحكمة قدرها ربي ويقصر عنها فهمي .. والحمد لله على كل حال.

أما أنا فلقد غبطت الدرويش الذي رأيته في مدينتي الصغيرة ذات صباح غير بعيد وتمنيت صفاء روحه وخلو باله، وغبطتُ «زعيمي» القديم في الزمن البعيد - بائع المجلات القديمة في القطارات. وتمنيتُ بعض انطلاقه وابتهاجه بالحياة، ورجوت لهما ولي وللجميع: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.. وشكرا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكاندة النوم غير المريح

فجأة وجدت نفسي في موطن الذكريات قديمة

فتجددت في قلبي أحداثها ورموزها..

فلقد كنت عائدا بعد منتصف الليل من عيادة طبيب الأسنان بالدقي، وتوقفت أمام صيدلية بشارع المتحف الزراعي لأشتري الدواء الذي أشار به، فتلفت حولي متعجبا كيف لم أجيء إلى هذا المكان طوال السنوات الماضية؟ ثم ابتعدت عن الصيدلية والسيارة وتجولت باحثاً عن معالم الذكريات القديمة متسائلا: ترى هل مازالت في مواقعها، أو جرى عليها ما يجري على معظم المعالم القديمة من الانقراض؟

ها هو مدخل العمارة القديمة التي أقمتُ في بنسيون بالدور الأرضي منها ولما أبلغ من العمر 19 عاماً، فأي معجزة حمت مدخلها الرخامي من التدهور والإهمال!

وها هو الدرج العالي الذي يرتفع إلى مدخل العمارة وكان يقف عليه دائماً بوابها الصعيدي الأسمر بشواربه الطويلة المفتولة.. فنسميه «أبا شنب».. أما غرفتي وفراندتها المطلة على الشارع الجانبي فقد كان لابد من أن أدور حول العمارة لأراها.. فرجعت إلى الشارع الجانبي.. وتأملت باب المحل المغلق إلى اليمين وتساءلت: أمازال صاحبه على قيد الحياة ويفتحه ساعات النهار فقط كما كان يفعل في أيامنا؟

اقتربتُ من الفراندة التي تطل على الشارع من ارتفاع قليل وتأملتها بحنين غريب، واسترجعت صورتي وأنا واقف فيها في أوقات الأصيل أنظر إلى الفيلا المواجهة لى وأرقب حياة أصحابها الوادعة.. وأتابع محاولات ابنة أصحاب الدار - التي لم تكن تتمتع بجمال كبير - للفت أنظار صديق شقيقها الذي يجيء لزيارته كل يوم تقريبا فترتبك حين تراه.. وترحب به بحرارة وتدعوه للجلوس في فراندة الفيلا إلى أن تستدعي شقيقها من الداخل.. وتقدم له مشروب الضيافة قبل أن تبلغ شقيقها بوصوله، وتكاد أن تقول له بغير كلمات: لماذا لا تخطبني وتحقق أحلامي في السعادة والزواج؟ ترى ماذا فعلت الدنيا بهذه الفتاة الطيبة وهل حققت لها الحياة أحلامها؟

وجدتُ الفيلا على حالها ولم تهدم لترتفع مكانها عمارة شاهقة كالكتلة الصماء، فاعتبرت ذلك أيضا معجزة أخرى من معجزات هذا الزمان الشحيح في تقديره للجمال.. وتلفت إلى الناحية الأخرى لأرى البيت الصغير المكون من دورين، والذي كان يقيم بدوره الأرضي زوجان يتبادلان الحب والعطف بغير إنجاب، ويقيم في دوره الأول «وليم أفندي» صاحب البنسيون الذي أقمت به بالعمارة المجاورة، ويقيم بدوره الثاني موظف وزوجته الشابة الحسناء، وشقيقته التي تبلغ السادسة عشرة من عمرها، فوجدت البيت الصغير قد أصابه «وباء» التعلية والتشويه، واختفت حديقة الدور الأرضي الصغيرة وأقيم فيها صف من المحلات الكئيبة..

فترحمت على الأيام الجميلة التي كان يجلس فيها الزوجان المتحابان في تلك الحديقة وقت الأصيل يشربان الشاي ويتبادلان المداعبات والضحكات.

كنتُ في ذلك الوقت في عامي الجامعي الثاني، وعامي الثاني أيضا بالقاهرة، بعد أن جئت إليها من مدينتي الصغيرة للالتحاق بكلية الآداب، وكنت قد أمضيت عامي الأول بالقاهرة مقيما في غرفة مفروشة بين أسرة موظف بوزارة الأوقاف بشارع الدقى، وكان تقليدا شائعا بين بعض الأسر المقيمة بالقرب من جامعة القاهرة أن تؤجر إحدى غرف مساكنها لطالب صغير مغترب مثلي لقاء أجر شهري.. ومقابل أن تهتم بأمره كأحد أفراد أسرتها، فترعى شؤونه وتراقب سلوكه وتكتب لوالد الشاب إذا بدرت منه أية بادرة انحراف. وكانت الأسرة التي أقمت بين أفرادها في ذلك الوقت أسرة مصرية طيبة.. ربتها أم رؤوم لثلاثة أطفال، تتعامل مع من يقيم لديها بعطف الأمهات أكثر مما تتعامل معه بمنطق صاحب المسكن، وكان الأب أيضا رجلاً فاضلاً يهتم بالسؤال عن أحوال دراستي ومذاكرتي، ثم انتهى العام الجامعي.. وحان موعد عودتي لمدينتي في إجازة الصيف، فسألتني ربة الأسرة في إشفاق:

- ألن ترجع للإقامة لدينا في العام القادم؟

فتفاديت الإجابة الصريحة، وتجنبت النظر إليها لكيلا تغلبني دموعي عند الوداع، وأسرعت بمغادرة البيت، فلقد كنت قد قررت رغم استمتاعي بالإقامة مع هذه الأسرة، أن أقيم في عامي التالي ببنسيون قريب من الجامعة لكي أخوض تجربة الحياة الاستقلالية الكاملة، ولكي أتمتع بحرية استقبال الأصدقاء في أي وقت بلا حرج.. فأنا إنسان كثير الأصدقاء بطبيعتي، وقد اعتدت في صباي أن أستيقظ من نومي خلال الإجازة الصيفية فأجد عددا الأصدقاء جالسين في نفس الغرفة يشربون الشاي ويلعبون الشطرنج ويتبادلون الأحاديث الطويلة في انتظار صحوي! أما كيف دخلوا؟.. فلقد جاءوا يسألون عني فقيل لكل منهم: تفضل بإيقاظه! واقتيدوا إلى غرفة نومي، ولحق الشاي بهم بعد قليل ومن حين لآخر راح أحدهم يحاول إيقاظي، فأتنبه للحظات وأحيي الضيوف، وربما أتبادل معهم أيضا كلمات المشاكسة، ثم أرجع للنوم مرة أخرى، وهكذا عدة مرات قبل أن أنهض في النهاية لتناول طعام الإفطار مع الأحباب!

ولهذا فقد وجدت صعوبة كبيرة في احتمال الحياة بلا أهل ولا أصحاب في بداية انفصالي عن أسرتي، وتطلعتُ إلى اكتساب صداقات جديدة من بين زملاء الكلية تعوضني عن أصدقاء الصبا الذين اتجهوا جميعا لكليات جامعة الإسكندرية الأقرب لمدينتي، ولم تمض شهور حتى كنت قد اكتسبت عدة صداقات جديدة بالفعل، وبدأ الأصدقاء الجدد يزورونني في مسكني وسط هذه الأسرة، وبدأت أستشعر الحرج من ربتها رغم عدم تذمرها من زيارات الأصدقاء، فرجعت مع بداية العام الدراسي التالي وأقمت في هذا البنسيون مقابل أجر شهري «باهظ» هو ست جنيهات كاملة! وكان جيراني به طالبا فلسطينيا وآخر جزائريا وثالثا مغربيا ورابعا مصريا! فتوثقت العلاقات بيننا بقدرة الشباب على التآلف السريع مع الآخرين.. وتبادلنا الاحترام والمودة والتضامن في مطالبنا من صاحب البنسيون بإصلاح

سباكة المطبخ والحمام. وكنت قد بدأت تدريبي بجريدة الأهرام.. وتفرغت له شهور الدراسة الأولى، ثم اقترب امتحان التيرم الأول فاستأذنت رئيسي في إجازة لمدة شهر للاستعداد للامتحان، وبدأ الأصدقاء الجدد يتوافدون على غرفتي بالبنسيون للاستذكار معا، ثم حمى وطيس معركة المذاكرة فحمل أكثرهم ملابسه وأقام عندي إقامة دائمة، وتحولت غرفتي بالبنسيون إلى خلية نحل تعمل ٢٤ ساعة كل يوم تتوزع فيها نوبات النوم على الفراش الوحيد بالعدل بين الأصدقاء على مدار اليوم كله، فينام فيه اثنان في الهزيع الأخير من الليل، واثنان في الظهر، واثنان في المساء، واثنان في أول الليل وهكذا.. وفي الأرض بعد ذلك متسع لمن أراد حصة إضافية من النوم، ولا تسلني كيفف كنا نستطيع الاستغراق في النوم وإلى جوارنا من يذاكرون بصوت عال أو يضحكون من الأعماق على نادرة عابرة، أو يأكلون ويصخبون بلا حرج من النائمين، فهذا هو الفارق بين نوم العافية في مرحلة الشباب، وبين النوم المضطرب الخاطف والاستيقاظ لأي بادرة إزعاج في مراحل العمر الأخرى.

وكان وليم أفندي صاحب البنسيون موظفا بوزارة الزراعة ويعين نفسه وأسرته بهذا العمل الإضافي، ويتردد على البنسيون من حين لآخر ليتفقد الأحوال فجاء ذات مرة ورأى باب غرفتي مفتوحا وفي الفراش صديقان مستغرقان في النوم، وعلى المكتب ثلاثة يذاكرون باهتمام وعلى الكنبة اثنان آخران يقرآن دروسها.. وفي الفراندة ثلاثة يحتلون باقي مقاعد الغرفة، وعلى الأرض صديق لم يجد مقعدا له فافترش «أمنا الأرض» على حد تعبير الفيلسوف الإغريقي القديم، فتأمل المشهد للحظات باسما ثم قال لي: لو حاسبتك على عدد «الرؤوس» التي تبيت في هذه الغرفة، لطالبتك بأضعاف أضعاف ما تدفع من إيجار!

وجاء مرة أخرى في الصباح وكنا كلنا في الكلية نؤدي الامتحان، فوجد ورقة صغيرة معلقة على باب غرفتي تعلن أن: «لوكاندة النوم المريح لصاحبها فلان.. ومديرها فلان.. وفراشها فلان.. وزبائنها فلان وفلان وفلان إلخ، مغلقة مؤقتا لظروف أداء الامتحان في مادة التحرير الصحفي اليوم، وستفتح اللوكاندة أبوابها من جديد بإذن الله في الرابعة مساء لاستقبال الزبائن»! فطوى الورقة ورجع بها إلى زوجته ضاحكا ليشهدها على ما يفعل هؤلاء الطلبة الشياطين! ثم يتندران بهذه الورقة بعد ذلك طويلا.

وقد اختص الصديق الذي كتب هذا الإعلان نفسه بوظيفة الفراش»، لأنه كان أكثرنا سماحة منا وأسرعنا في الاستجابة لطلبات الأحباب من الشاي والقهوة، فينهض لصنعها في المطبخ مسلما أمره لله، ولاعناً اليوم الذي أصبح فيه «خادماً لأبينا»!

أما صاحب المحل الذي وجدت بابه مغلقاً وأملتُ أن يكون مازال يواصل عمله، فلقد كان بقالاً صغيراً يضيف إلى بقالته بيع الفول والطعمية في الصباح فقط، وكان في الأيام العادية يعد لي سندوتشات الفول والطعمية الساخنة ويلفها في غلاف محكم، ثم يلقي بها إلى الفراندة فتصطدم ببابها الخشبي.. ويتبعه بصيحة واحدة لا تتكرر مرتين وهي: يا فلان أفندي.. اصح! ثم يرجع في هدوء إلى محله،

وأصحو أنا لا على صوته، ولكن على صوت ارتطام «القنبلة» التي يقذف باب غرفتي بها كل صباح، ويواظب على ذلك كل يوم بانتظام ولا يحاسبني عما «قذفني» به إلا في أول الشهر أما في موسم المتحان وازدهار نشاط لوكاندة النوم المريح، فلقد كان يضطر للخروج على عادته والمجيء إلى البنسيون في الصباح حاملاً «حلَّة» كبيرة من الفول وكمية ضخمة من الطعمية.. ولوحاً من الجريد فوقه 30 رغيفاً من الخبز.

أما طعام الغداء فلقد كان يجيئنا به بعد إغلاق هذا الرجل لمحله في الأصيل صبي صغير رأيته يلعب في الشارع أمام العمارة ويبدو كالمتشردين، فأغريته بالعمل بالبنسيون بدلاً من التشرد في الشوارع واستجداء المارة، واقتنع بالفكرة، فعينته «فراشاً» في البنسيون بأجر شهري كبير قدره جنيه واحد! واستأذنت وليم أفندي في ذلك، فأذن به بشرط أن أتحمل أنا «مرتبه الكبير» لأن ميزانية البنسيون لا تحتمل أية مرتبات للخدمة، وسعد هذا الصبي بعمله الجديد، وسعدنا نحن أيضاً به، وانهالت عليه قروش الأصدقاء وبقشيشهم، وتشجيعهم له على العمل الشريف بدلاً من مصاحبة المتشردين وتعلم سلوكياتهم المنحرفة، وكان قد «تعلم» بالفعل تدخين السجائر فنهيته عنها بشدة، واستجاب لرغبتي، وتحول إلى شخص آخر، خصوصا بعد إرغامه على دخول الحمام، فبدا في صورة جديدة، وتحسن مظهره وصحته وطريقته في الكلام والسلوك بفضل صحبته لهؤلاء الأفندية من طلبة الجامعة الذين علموه كيف يتحدث وكيف يتصرف في المواقف المختلفة. وقد استمر هذا الصبي في عمله بالبنسيون حتى بعد مغادرتي له وانتقالي إلى مسكن خاص بي بالمنيل، وواظب عدة سنوات بعد ذلك على زيارتي بالمنيل في أيام الجُمَع لقضاء بعض مطالبي، وكلما جاءني سألني عن أصدقاء الزمن القديم: فلان أفندي.. وفلان أفندي.. إلخ، حتى غادرت حي المنيل كله وانقطعت الصلات بيننا، فترى ماذا فعلت به الأيام؟

لقد كاد هذا الصبي الصغير أن يحدث «فتنة» بيننا وبين أحد من أصدقائنا من زبائن لوكاندة النوم المريح من حيث لا يدري ولا يحتسب، فلقد كان من بين هؤلاء الأصدقاء صديق معروف بيننا بحبه للنوم لفترات طويلة واستمتاعه بالكسل وقلة الحركة وضيقه بأي أمر أو طارئ يدعوه للنهوض من مجلسه، ويصبر على الجوع أو العطش حتى يجيئه من يكفيه مئونة الحركة وينهض بدلاً منه لإحضار ما يحتاج إليه، حتى أطلقنا عليه لقب «التمبل».. وكانت روحه مطمئنة دائما للحياة وللمستقبل وواثقة الغد، ولا يرى داعيا للانزعاج لأي شيء أو للقلق على المستقبل أو الطموح المهني، لأن كل شيء على ما يرام، وسوف يجيء كل شيء في موعده، فلعله كان في ذلك من أنصار الفيلسوف الألماني المتفائل ليبنتز الذي كان يقول: «كل شيء على ما يرام.. وهذا العالم هو أفضل عالم يحتمل أن يكون موجوداً في الكون»، مع أنه لم يكن قد سمع باسم ليبنتز ولا بفلسفته في التفاؤل، كما كانت له «قيلولة» يومية يحرص عليها في كل الأوقات، وتمتد من الرابعة مساء إلى أن نوقظه نحن منها «بالطبل البلدي» في الثامنة مساء! وقد صحا ذات

مرة من قيلولته بعد جهد جهيد ففتح عينيه في تراخ. وتلفت حوله ثم قال لي في «حنين» عجيب:

- يا سلام يا فلان لو أحلنا إلى المعاش.. واستمتعنا بالنوم طول النهار!

فيا إله السموات أن يحلم شاب بالإحالة للمعاش ونحن لم نبلغ بعد سن العشرين، بل ولم نعين أصلاً في وظائف رسمية لكي نحال منها للمعاش عند الستين، وإنما نتدرب في الصحف بالمكافأة وبلا عقود للعمل.. فهل ترانا قد خالفنا منطق الأشياء حين أطلقنا عليه لقب التمبل؟

وهل جاوز هذا الصبي الصغير الحقيقة حين جاءنا ذات يوم - بعد أن سمع هذه الكلمة تتردد على ألسنتنا مراراً للإشارة إلى هذا الصديق- فقال لنا أمامه إن بواب العمارة يرغب في التحدث إلى فلان أفندي التمبل؟

لقد ضحكنا من أعماقنا للمفارقة وغضب لها صديقنا بشدة، وتصور أننا قد أهنّاه وجرأنا عليه هذا الصبي الصغير، ولم يصدق إلا بعد جهد جهيد أن الصبي يتصور فعلاً أن كلمة التمبل هي لقب عائلته وليست سباباً ولا تجريحاً! وانتهت الأزمة بعد عناء كبير، وبعد أن نبهنا على الصبي بألا يعود إلى تكرار هذه الكلمة، فإذا سألتني ماذا حقق هذا الصديق في حياته وهو الذي كان يحلم بالإحالة للمعاش في سن العشرين، لأجبتك بأنه - على خلاف ما تتوقع - قد حقق بذكائه واجتهاده في حياته العملية نجاحا كبيرا، لكنه حقق ما حققه بالنفس الهادىء غير المهرول ولا المتعجل للأهداف، وبالثقة المطمئنة إلى الغد، والقدرة على الاستمتاع بالأشياء في الوقت نفسه، وهذا هو الفارق بينه وبين غيره من زملاء رحلة العمر!

وعلى هذا المنوال عشتُ عاما كاملاً في هذا البنسيون الذي لم أجد الفرصة - للأسف - لأعرف هل مازال مفتوحا للنزلاء، أم تحول صاحبه عن مشروعه التجاري منذ زمن طويل؟

وحين رجعت إلى سيارتي بعد أن طفت طوافي الممتع بموطن الذكريات وجدتني أقول لنفسي: إن السعادة كانت تقيم بين ظهرانينا ونحن نتكدس في غرفتي الضيقة بهذا البنسيون حتى لا يجد الإنسان أحيانا مكانا يمد فيه ساقيه ويستريح!

وتذكرت الحكمة البوذية القديمة التي تقول: «إن لكل إنسان منا شمسين.. واحدة في السماء.. وواحدة في داخله» وإنه حين تغيب شمس السماء ويظلم الكون فلا يضيء للإنسان حياته إلا شمسه الداخلية، وإنه لهذا السبب فلا بد أن يحتفظ الإنسان بها متوهجة دائماً بالأمل في الغد.. وبالرضا عن الحياة، وبالقدرة على تجديدها وتجديد الأهداف في كل مرحلة من مراحل العمر، وبالاستمتاع بالعلاقات الإنسانية، وأنس الصحبة الصافية، والود الصادق، والابتهاج بأتفه الأشياء.. وتذوق الجمال في كل شيء.

لقد كانت «شموسنا الداخلية» في ذلك الزمان السعيد ساطعة دائماً ومتوهجة أبداً بالأمل في الغد رغم كل الصعوبات..

فإياك ياصديقي أن تطفىء هذه الشمس الداخلية داخلك، وإلا خيم الظلام على حياتك وأطبق اليأس والإحباط عليك من كل جانب فتفقد القدرة على تذوق الحياة.. بل عن تحملها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذكرى ليلة صيف

كانت بحق ليلة لا تنسى!

فلا عجب إذن أني لم أنسها حتى الآن ولم ينسها طرفاها الأساسيان.. وما أظنهما سوف ينسيانها إلى نهاية العمر.

ففي أوائل السبعينيات كنت أقضي سهراتي في مقهى سوق الحميدية بباب اللوق.. فأتوجه إليه كل ليلة عقب انتهاء عملي بالأهرام، وأجد دائماً شلة الأصدقاء في الانتظار.. فأقضي معهم بضع ساعات، أستريح خلالها من عناء العمل، وأشعر بالألفة والإيناس بينهم، فإذا نهضت لمغادرة المكان والعودة إلى البيت تحكمت المقادير وسيارتي الصغيرة البالية في الموعد الذي أهجع فيه إلى فراشي، فقد تكون ليلة سعيدة فأدير المفتاح في موتور السيارة، فيستجيب على الفور، وأنطلق بها عائداً إلى بيتي.. وقد «يعصلج» الموتور في الدوران، فأحتاج إلى وقت طويل لإدارة السيارة وتحريكها، وقد يتطلب الأمر في بعض الأحيان طلب المساعدة من ميكانيكي السيارات القريب.. أو محل الإطارات المجاور له لتبديل أحد إطارات السيارة، وقد يغلب اليأس على الجميع.. وأسلم مفتاح السيارة للمنادي وأنقده خمسين قرشا لكي يتولى حراستها في الليل إلى أن يطلع الصباح، ويقوم الجرسون الصديق بالإشراف على إصلاحها، وأستقل أنا سيارة أجرة إلى بيتي. ولست أدري حتى الآن أي شيء بالتحديد كنت أطلب «حراسة» هذه السيارة البالية منه، وليس فيها ما يغري أحدا بسرقته؟ لكنه إحساس الإنسان المُغَالى فيه دائماً بقيمة ما يملكه من أشياء حتى لو كانت لا تعني للآخرين شيئاً.

وفي تلك الليلة دخلت إلى المقهى قرب العاشرة مساء مبكرا بعض الشيء عن موعدي المعتاد، فلم أجد أحداً من أفراد الشلة، ووجدتُ صديقاً قديماً يجلس إلى مائدة جانبية مع خطيبته - وهي زميلته أيضا في العمل - ولاحظت للوهلة الأولى أن في الجو غيوماً تخيم على سماء الخطيبين المرتبطين بعلاقة حميمة منذ أكثر من عامين ويغالبان ظروفهما، ويأملان في تتويج ارتباطهما بالزواج ذات يوم قريب! وتوقعت أن يكونا في حاجة إلى انفرادهما بنفسيهما في هذه الظروف، فحييتهما واتجهت إلى مائدة بعيدة، لكن صوت الصديق لاحقني داعياً إياي لمشاركتهما الجلسة، وشاركته خطيبته الدعوة بإلحاح.. فاتجهت إليهما متوجسًا، ولمحت أثر الدموع في عيني الخطيبة الواجمة، ومضت دقائق كان الصديق خلالها مستغرقا في التفكير والوجوم، ثم بدا لي وكأنه قد ضاق بشجونه وأفكاره ورغب في حسم ما يشغله من أمور، فقال لي فجأة متجهماً:

- فلان!.. أنا وفلانة نريد أن نتزوج!

فلم أفاجأ بهذه الرغبة، وأنا أعلم أن كلاً منهما قد اختار الآخر وينتظران تحسن الأحوال المادية لكي يتوجا حبهما بالزواج

فلم أجد ما أقوله سوى: وما الجديد في ذلك؟

فأجابني في هدوء: نريد أن نتزوج الآن!

فسألته مستوثقاً: الآن.. الآن؟

فأجابني بالإيجاب.. وأدرتُ عيني إلى الخطيبة فرأيت علامات الارتياح تتسلل إلى وجهها لأول مرة، وأدركتُ على الفور أنهما كانا يتجادلان حول مستقبلهما، وأنها قد ضاقت بالانتظار الطويل لتحسن الأحوال بلا جدوى.. وبدأت تتشكك في جدية سعي رفيقها لإتمام المشروع... صارحته بشكوكها، فأراد حسم الظنون بالإقدام على الخطوة الإيجابية التي لا تدع مجالاً لأي شك، وتصورت كذلك أنهما كشابين مكافحين قد أدركا بعد طول عناء أن الانتظار الطويل إن لم يُحْسَم بعمل إيجابي فقد يؤدي إلى تميع العلاقة.. والاستسلام للظروف القاسية، واليأس من إتمام الزواج ذات يوم قريب..

جـال كل ذلك في خاطري، فوجدتني - ولا أعرف حتى الآن كيف - أتعامل مع ما أبداه لي الصديق من رغبة بواقعية شديدة وهدوء أشد، وكأنما لم يعرب لي سوى عن رغبته في أن أدعوه إلى فنجان من القهوة!

ولم أنطق بكلمة أخرى، وإنما استأذنتهما في الغياب لحظة، ونهضت إلى تليفون المقهى وطلبت صديقا من أفراد الشلة يقيم بشارع قصر العيني القريب، ورجوته مغادرة بيته وانتظاري على الرصيف المقابل له لأني سأمر عليه لاصطحابه في مشوار عاجل بعد عشر دقائق، ورجعت إلى الصديقين فأكملت احتساء فنجان القهوة ثم دعوتهما إلى النهوض، واتجهنا إلى السيارة، وقُدْتُها إلى شارع قصر العيني حيث وجدتُ الصديق في انتظاري.. فدعوته إلى الركوب، فركب وهو يدير عينيه حوله في اندهاش ظاهر، يحاول أن يفهم ما يجري حوله بلا جدوى، ولم أشف غليل دهشته وفضوله.. وإنما طلبت منه الانتظار ولسوف يفهم كل شيء في حينه.. ثم قدتُ السيارة إلى حى عابدين وتجولت بها في الشوارع وأنا أقرأ لافتات المكاتب المعلقة على المنازل، إلى أن توقفت أمام إحداها.. ودعوث الجميع إلى النزول.

وصعدنا السلم إلى غرفة مكتب بسيطة في الدور الأول.. ووجدنا في انتظارنا شيخاً متوسط العمر يجلس إلى مكتب خشبي متواضع رد تحيتنا ببشاشة، ودعانا إلى الجلوس، ثم تساءل مبتسماً: زواج إن شاء الله أم طلاق لاقدر الله؟

فأسرعت أجيبه بأنه زواج إن شاء الله..!

وقدمتُ إليه بطاقتي الشخصية، وقدم الآخرون بطاقاتهم، فانشغل بعض الوقت بتسجيل البيانات، ودعا العروسين إلى التوقيع على الوثيقة.. ودعانا نحن للتوقيع عليها كشاهدين، ثم التفت إلى العروسين باسماً، وطلب منهما أن يمسك كل منهما يد الآخر.. ووضع منديله فوق يديهما، وبدأ بقراءة الصيغة الشرعية للزواج، ابتداء من حمد الله جل شأنه وشكره على أن خلق لنا من أنفسنا أزواجا لنسكن إليها، إلى الثناء على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه، الذي هدانا إلى الخير، وقال لنا ما معناه: خيركم.. خيركم لأهله.. وأنا خير الناس لأهلي (والأهل

هنا هي الزوجة وشريكة الحياة).. حتى بلغ الإشارة الى إتمام هذا العقد على سنة الله ورسوله، وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه. وختاماً بدعوتنا جميعاً إلى رفع الأيدي وقراءة الفاتحة والدعاء للعروسين بالتوفيق في حياتهما المقبلة بإذن الله.

وشاركت في كل هذه المراسم وجسمي يقشعر بجلال الموقف، ورهبة المناسبة التي تجمع بين حبيبين على إرادة السعادة، في ظلال طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله، ومشاعري تتراوح بين الابتهاج بنشوه هذه المناسبة والمساعدة على تحقيقها، والإحساس الغامض بالشجن والرغبة الخفية في البكاء بلا سبب واضح. أما العروس فلقد أراحت نفسها من عناء كبت المشاعر ومئونة التحفظ التي تكبُدتها أنا، وأطلقت العنان لدموعها لتسيل على وجهها الباسم حتى رقت لها قلوبنا جميعا، وكنت أعرف من ظروفها أنها فتاة طيبة يتيمة الأب تعيش مع والدتها، وتحلم بالسعادة والاستقرار والعيش في هدوء إلى جوار من أحبه قلبها بصدق.. فازددت إشفاقاً عليها وأملاً لها في أن تهبها الحياة كل ما ترجوه لنفسها. وانتهت المراسم، وجاء وقت «الحساب»، فسألنا الشيخ الطيب عن أتعابه، فإذا به يقول لنا ببساطة: خمسة جنيهات فقط!

وكان هذا المبلغ وقتها هو الأتعاب الشائعة في أوساط البسطاء لعقد القرآن، أو لعل الرجل قد أدرك الظروف المحيطة بشابين يجيئان إليه بلا أهل سوى صديقين لهما في مكتبه بعد العاشرة مساء ليعقدا قرانهما عنده وليس في بيت الأسرة، فأراد التخفيف عنهما مراعاة لواقع الحال.

وانصرفنا من مكتبه والعروس لم تجف دموعها بعد.. ودعوت الجميع إلى الاحتفال بالمناسبة السعيدة، لكنها اعتذرت وفضلت التوجه إلى البيت مباشرة مع خطيبها أو زوجها لكي تبلغ والدتها بالخبر السعيد، وتطمئنها إلى أن سفينتها قد استقرت في النهاية في مرفأ الزواج والأمان.

وفارقنا العروسين عند بيت الأم، ورجعنا إلى المقهى أنا وصديقي الذي لم تفارقه الدهشة طوال الوقت منذ ركب السيارة حتى ودعنا العروسين، ومن حين لآخر يميل إليّ ويسألني هامسا: إيه الحكاية؟ .. فلا أجيبه سوى بدعوته إلى الصبر والانتظار، إلى أن خلونا بنفسينا في السيارة عقب انصراف العروسين، ورويت له «الحكاية» من البداية وأشبعت فضوله بتفاصيلها، وذهبنا إلى المقهى سعيدين بما مكننا الله سبحانه وتعالى من القيام به لتتويج حب هذين الشابين بالزواج.

أما العروسان فلقد تغلبا على المشكلات التي كانت تبدو لهما - قبل الإقدام على هذه الخطوة الجريئة كالجبال الشاهقة - خلال عام أو عامين، وتمكنا من إنشاء عشهما الصغير بعد رحلة كفاح مجيدة.. وأما السنوات فقد مضت بعد ذلك وما كان يبدو للعريس المتردد أنه مستحيل الوقوع قبل البداية، تحقق له بعد اقتحام المشكلة بالإرادة والكفاح والتعاون بين حبيبين اختار كل منهما الآخر، واحتمى به في وجه مصاعب الحياة. وأما عشرتهما فلقد دامت واستقرت وأثمرت أجمل الثمار، وتجاوز العريس كل الصعاب وتقدم في حياته العملية وشغل المناصب

المرموقة في مجاله، وقدم مع شريكته للحياة أبناء نشأوا في بيت عامر بالحب والإخلاص والوفاء، وأما أنا فلقد باعدت مشاغل الحياة بيني وبين هذا الصديق فلم نعد نلتقي إلا لماماً.. لكننا ما أن نلتقي حتى يشعر كل منا بأنه في حضرة صديق حميم يأنس إليه ويفتح له قلبه ويشعر معه بزوال كل الحواجز والفواصل. وما من مرة التقيت به فيها أو سمعت صوته عبر التليفون إلا وذكرني بأنني «عمه» الذي زوجه من شريكة حياته، بالرغم من أنه يماثلني في العمر، وإلا وكرر عليّ القول إنه مدين لي بسعادته في حياته العائلية مع شريكته الطيبة العطوف لغير شيء سوى أنني قد تعاملت بواقعية وجدية غريبة - كما يقول مع الفكرة «المجنونة» التي طرأت عليه فجأة تلك الليلة في المقهى، وأراد بها أن يطمئن فتاته إلى صدق رغبته فيها وتمسكه بها بعد أن ضاقت بطول الصبر والانتظار وهواجس الخوف من المجهول، ولولا ذلك -كما يقول - لربما كانت سنوات أخرى ثمينة من العمر قد ضاعت قبل أن يجد في نفسه الشجاعة للإقدام على هذه الخطوة التي لم تكن تؤهله ظروفه وقتها لها، ولربما أيضا كانت فتاته قد يئست منه، وتشككت في جديته وإخلاصه.. واتجهت إلى طريق آخر بعيد عنه، لكن رُبّ «جنون» قد يكون في بعض الأحيان أكثر حكمة من التحسب الشديد للأشياء الذي يغل الإرادة ويمنع الفعل!.. ورُبّ فكرة «طارئة» تكون في بعض الأحيان أفضل من كثرة التردد والتدبير وطول الأناة!

أو هذا على الأقل هو ما أكدتْهُ التجربة التي كنت شاهداً عليها لهذا الصديق.

فما رأيك أنت؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«فكيت» الجنيه؟!

كنت صحفيا شابًّا في بداية العشرينيات من عمري، وقد سافرت إلى الإسكندرية في الشتاء لأقضي بها، كعادتي في ذلك الحين بضعة أيام مع أصدقاء الطفولة الذين فرقت بيني وبينهم الدراسة الجامعية؛ فالتحقوا هم بكليات جامعة الإسكندرية القريبة من مدينتنا بالوجه البحري، و «هاجرت» أنا وحيداً إلى القاهرة لألتحق بكلية الآداب؛ لأنها كانت الوحيدة التي تدرس الصحافة في أحد أقسامها في ذلك الوقت.

وكان الأصدقاء في ذلك الصباح الشتائي المنعش في أعمالهم فخرجتُ وحيدًا أتجول في منطقة «محطة الرمل» وأتسكع أمام أكشاك الكتب والصحف.. ثم ركبت ترام الإسكندرية الشهير عائدا إلى بيت الصديق الذي نزلت ضيفا عليه، وجاءني «الكمساري»، فأخرجتُ جنيهاً وقدمته له، فاعتذر لعدم وجود «فكة» معه، وطلب قرشين هما أجرة الركوب بالدرجة الأولى من الترام في ذلك الوقت- واعتذرت أنا بدوري بأنني لا أحمل أية فكة.. فأصبحت أزمة! وتجادل الكمساري معي، وتجادلت معه، وشاركنا بعض الركاب في البحث عن حل للمشكلة.. فقام أحدهم بفك الجنيه إلى ورقتين من فئة الخمسين قرشا، وتطوع آخر بفك ورقة منها، وقدمت للكمساري ثمن التذكرة، وحُلت الأزمة في النهاية.. ثم انتهت إجازتي بين أصدقائي، ورجعتُ إلى عملي الصحفى بالقاهرة.. وبعد أسبوع من عودتي كنت أجري تحقيقا صحفيًّا عن القضاء.. واحتجت إلى مقابلة وزير العدل - وهو وقتها المستشار عصام الدين حسونة - وكنتُ قد التقيت به قبلها عدة مرات وهو محافظ لبني سويف، وأجريت معه عدة تحقيقات صحفية. فاتصلت بمكتبه وطلبت موعداً معه.. وتحددت المقابلة في التاسعة صباحا بمكتبه في الوزارة، وتوجهت إليه في الموعد المحدد.. فما إن دخلت عليه حتى بادرني بسؤال عجيب وغير متوقع.. هو: فَكيت الجنيه؟

وأُرتجَ عليّ الأمر، فلم أفهم السؤال.. ونظرت إليه مندهشاً.. فإذا به يستغرق في الضحك، فجمعت شتات نفسي وسألته: أي جنيه يا سيادة الوزير؟ فأجاب وهو لا يزال يضحك: جنيه الترام في الإسكندرية لكي تدفع ثمن التذكرة!

وتذكرت الواقعة.. وضحكتُ لها وتعجبت: كيف علم بأمرها؟!.. وقبل أن أسأله عن ذلك كان قد أخبرني أنه كان راكباً الترام نفسه، ورآني، وتابع الجدال بيني وبين الكمساري بشغف واهتمام، إلى أن تطوع الركاب بحل الأزمة.. وروى لي أنه قد همّ بأن يعرض عليّ إقراضي قرشين لدفع ثمن التذكرة على أن أردهما إليه حين ميسرة! فما إن فكر في ذلك حتى كانت الأزمة قد انتهت بسلام، فأعاد القرشين إلى جيبه والتزم الصمت!

وضحكنا للقصة طويلاً.. وسألته عن موقعه في عربة الترام طوال هذه المجادلة، وتعجبت: كيف غابت عني رؤيته خلال ذلك؟.. ثم انتقلنا إلى الموضوع الذي ذهبت إليه من أجله.. وسجلت آراءه فيه، ونشرت التحقيق، فما من مرة لقيته فيها بعد ذلك في مكتبه بالوزارة أو في حفل عام كان مدعوًّا إليه إلا وبادرني ضاحكا

بالسؤال نفسه أمام كبار رجال القضاء: فكيت الجنيه؟.. ثم استمتع بارتباكي وتعثري في الإجابة عن أسئلة معاونيه من كبار المستشارين عن حكاية هذا «الجنيه» الذي يشغل وزير العدل!

أما لماذا تذكرت هذه القصة القديمة فجأة.. فلأنني كنت قبل أيام أتناقش مع أحد الأصدقاء حول الكبار والصغار في المناصب العليا وأروي له بعض ذكرياتي الصحفية عمن عرفتهم من «الكبار» في مناصبهم، وبعد مغادرتهم هذه المناصب، وعن «الصغار»، الذين كانوا كذلك وهم في مناصبهم الرفيعة، وازدادوا صغرا وضآلة بعد أن غادروها.. ولقد كان المستشار عصام الدين حسونة واحداً من هؤلاء الكبار في مناصبهم.. وفى خارجها، ومن هنا تذكرت قصتي معه.

فأما أول من لفت نظري إلى هذا الفرق الجوهري بين الكبار والصغار، فلقد كان الإمام محمد عبده الذي قال ذات يوم: الرجل الكبير يرى نفسه أكبر من منصبه، فلا يهلع حين يغادره.. والرجل الصغير يرى منصبه أكبر منه، فيهلع حين يغادره!

ولأنني قد بدأت العمل الصحفي في سن السابعة عشرة، فلقد تمرست في سن مبكرة على التعامل مع شاغلي المناصب العليا، فرأيتُ فيهم من ينطبق عليه قول الإمام محمد عبده، ويعدون من الكبار حقا وصدقا، سواء بقوا في مناصبهم أو غادروها.. ورأيتُ منهم كذلك من لا قيمة حقيقية لهم كبشر وأشخاص، سواء بقوا في مناصبهم.. أو غادروها! ومن عجب أنني لمستُ في هذا النوع الأخير بالذات كل أمراض السلطة، من الاستعلاء والغطرسة، والتسلط، والاعتداد الكاذب بالنفس إلى حد الغرور، والاستهانة بأقدار الآخرين.. فلا عجب إذن في أن سمح لي العمر بأن أرى في كثيرين منهم برهانَ ربي وتَذْكرتَه ممن ينسون أنفسهم وهم في غرور القوة والتسلط! ولا عجب في أن يكون هؤلاء بالذات هم أكثر الناس هلعاً حين يفقدون مناصبهم.. ولا في أن ينهال عليهم تراب النسيان بمجرد مغادرتهم مناصبهم، وقد كان كل منهم يظن نفسه نجماً ساطعاً في سماء الزمان!

ولا عجب كذلك أن يذكرني بعضهم ببيت الشعر القديم للشاعر محمد الأسمر الذي يقول فيه:

وَأَحسَنُ مِن نَيلِ الوِزارَةِ لِلفَتى

حَياةٌ تُريهِ مَصرَعَ الوُزَراءِ!

أي تغير الأحوال ببعضهم، وصعود البعض وهبوطه، وانفضاض الدنيا من حول من لم يزع الحق والعدل، ونسي نفسه، وتملكه الغرور والكبرياء في حال إقبال الدنيا عليه..

فإذا كنتُ قد تذكرت في حديثي مع هذا الصديق واحداً من هؤلاء الكبار - وقد عرفت منهم عددا لا بأس به كانوا كباراً بحق وهم في مناصبهم الرفيعة، وظلوا كذلك بعد أن غادروها - فمن حقك عليّ أن أروي لك كذلك تجربة لي مع واحد من النوع الآخر.. وقد عرفتُ منهم خلال رحلة عملي الصحفي أيضا عددا آخر لا بأس به!

أما هذا المسؤول الذي أحدثك عنه فقد تولى إحدى وزارات الخدمات التي يفرض على إشراف على «بريد الأهرام» التعامل مع وزرائها لحل مشكلات قراء البريد لديهم، وقد خلف في منصبه وزيرا كان من الكبار بحق، وتعاون معي طوال فترة عمله بالوزارة بإخلاص في حل مشكلات المواطنين، وبادر بالاستجابة لحل كل مشكلة نشرت في بريد الأهرام تدخل في دائرة اختصاصه، وخصص موظفا بمكتبه لتلقي أصول الشكاوى المنشورة ومتابعة حلها، ولاحقني بالردود والإيضاحات على ما ينشر بالبريد طوال عهده من آراء وتعليقات على أداء الأجهزة التابعة لوزارته..

وكثيرا ما أيقظني من نومي في الثامنة صباحا بتليفون منه معاتباً على رسالة نشرت بالبريد يرى فيها افتئاتا على وزارته، أو تتطلب إيضاحاً لا يعرفه كاتب الرسالة.. فأعتذر له بأن بريد الأهرام ينشر رسائله على مسؤولية كاتبيها، وأرحب بأي رد يطلب نشره على ما جاء فيه.. فلا يدعني لأتمالك نفسي لحظات، وأنا شبه نائم تقريبا، وإنما يشرح لي وجهة نظره ويطلب مني صياغتها في رد ينشر باسمه.. فأسجل نقاط حديثه على غلاف أي كتاب من الكتب الموضوعة إلى جوار فراشي، وأضع السماعة شاكراً، ثم أستغرق في النوم لساعة أو أكثر قبل أن أنهض لأداء عملي، وأصوغ النقاط التي أملاها عليّ وأنا أخشى أن يكون قد فاتني منها الكثير وأنا شبه نائم، ثم أنشرها وأنا متوجس من ذلك.. فلا يكاد «الأهرام» ينزل إلى السوق حتى يتصل بي في موعده المفضل (!) ليهنئني على «دقة» صياغتي لرده وأفكاره.. ثم غادر هذا الرجل الكبير منصبه الذي لا يدوم لأحد، ولو كان كذلك لما وصل إليه.. وجاء ذلك المسؤول.. فلاحظت أنه قد مضت شهور على تعيينه دون أن أتلقى منه أو من مكتبه أي رد على ما ينشر في «بريد الأهرام» ولا أية استجابة لحل أية مشكلة من مشكلات القراء المنشورة بالبريد، لا منه، ولا من مكتبه أو إدارة العلاقات العامة بوزارته، كما كان الحال في عهد سلفه.. وكلها مشكلات حيوية لا تحتمل الانتظار.. وناقشت «مندوب الأهرام» في تلك الوزارة في ذلك وأبديت له عجبي من عدم اهتمام ذلك الوزير بالرد على ما يثار حول وزارته، أو بتقديم أية استجابة لصرخات المواطنين في البريد.. فقال لي المندوب: إنه شخص متجهم متغطرس، لا يقابل أحدا.. ولا يستجيب لمكالمة أحد، وليس لديه أي حس سياسي يشعره بأهمية التجاوب مع نبض الرأي العام، والرد على تساؤلاته.. ونصحني الزميل بأن أتجه إلى وكلاء الوزارة والمديرين المختصين مباشرة لحل مشكلات القراء، وتعجبت لذلك كثيرا وعملت بنصيحة الزميل، وركزت اتصالاتي مع المديرين المسؤولين بوزارته لحل مشكلات القراء.

ومضى عامان طويلان على هذا الحال، ثم نشر أحد أصدقاء بريد الأهرام رسالة يدعو فيها إلى تنظيم حملة تبرعات لمصلحة مشروع خيري كبير تشرف وزارة هذا الوزير عليه، ونشرت الرسالة، ففوجئت برد من الوزير مرسل إلى مع مندوب يحيي فيه كاتب الرسالة ويشجع هذه الحملة.. ونشرت الرد، ونظمنا الحملة، وجمعنا مبلغا كبيرا من التبرعات لمصلحة هذا المشروع، واستصدرت شيكاً من الإدارة المالية بالأهرام بقيمة المبلغ، ولم يتبق سوى إرساله إلى السيد الوزير

المشرف على المشروع.. وبالرغم من نفوري مما كنتَ قد سمعتَ عنه.. فقد رأيت أن «شرف مكانه» يفرض على ألا أرسل إليه الشيك مع مندوب من «بريد الأهرام»، وأن أتوجه لمقابلته وتقديم الشيك إليه، والحصول على توقيعه على الإيصال الخاص بذلك.. وطلبت من الصديق كاتب الرسالة الذي بدأ هذه الحملة - وكان يعرفه شخصيا - تحديد موعد لي معه لأسلمه الشيك.. واتصل بي الصديق بعد نصف ساعة مبتهجاً وأبلغني أن الوزير قد رحب بمقابلتنا معا، وحدد الموعد في العاشرة من مساء غد في قاعة ألف ليلة وليلة بفندق هيلتون النيل، حيث سيكون الوزيرِ هناك لحضور حفل ساهر تقيمه هيئة تابعة لوزارته، وزف إليّ الصديق متهللاً البشرى السعيدة، وهي أننا سوف نجلس إلى مائدة الوزير خلال الحفل.. وعندها أقدم إليه الشيك و«أستمضيه» على إيصال الاستلام، وأنصرف مشكورا أو أبقى إذا أردتُ!

وترقب الصديق ابتهاجي بهذا الشرف الكبيِر.. فصدم بوجومي للحظات في البداية، ثم فوجئ بانفعالي عليه بعدها.. قائلاً له: إنني لا أسعد بالسعي إلى كبار المسؤولين في مكاتبهم.. ولم أفكر في زيارة هذا الوزير في مكتبه لتقديم الشيك إلا احتراما لشرف مكانه، ولولا ذلك لأرسلته إليه مع أي موظف بالأهرام كما أفعل مع غيره من المسؤولين عن بعض المشروعات والهيئات الخيرية التي يسهم «بريد الأهرام» في تقديم التبرعات إليها.. كما أنني لستُ صديقا شخصيا له ولم ألتق به من قبل، ولا تربطني به أية صلة سابقة تبرر له أن يدعوني لمقابلته لأول مرة في «فرح» أو حفل عام! وما دام هو لا يحترم أقدار الآخرين فلا لوم عليّ إذن إن أرسلت الشيك غدا إلى مكتبه مع مندوب من «بريد الأهرام».. ومن لا يحترم الناس لا يحق له أن يعتب عليهم إن حرموه من هذا الاحترام!

وبهت الصديق لانفعالي وغضبي، وانتهت المكالمة عند هذا الحد ونفذت ما قلته له

وتذكرتُ أين قرأت لأول مرة هذه العبارة التي أراعي الالتزام بها دائما في معاملاتي مع الجميع.. كبارهم وصغارهم.. وهي عبارة «شرف المكان»! فقد قالها الخليفة عمر بن الخطاب حين وَلِيَ الخلافة، فخاطبه رجل قائلاً: يا خليفة رسول الله.. فأجابه: ذاك صاحبكم- قصد أبا بكر الصديق رضي الله عنه -.. فقال له: يا خليفةَ خليفةِ رسول الله.. فقال له: ذاك أمر يطول! فقال له: يا عمر! فأجابه: لا تبخسني شرف مكاني، فإنها أنتم المؤمنون، وأنا أميركم. وهكذا صَك الفاروق عمر عبارة «أمير المؤمنين»، لأول مرة في التاريخ، وهو من هو تواضعا وبساطة، وبُعداً عن المظهرية وغرور السلطة! وإنها لكل عمل أو مكان أو منصب شرفه الذي ينبغي احترامه واحترام شاغله، ما احترم هو نفسه واحترم الآخرين..

ثم مضت بضعة أسابيع وحدث تعديل وزاري، خرج فيه هذا المسؤول من الوزارة.. وبعد أيام قليلة من خروجه كنت بعض الأصدقاء في فندق كبير من فنادق القاهرة، فاحتجت إلى دخول الحمام، واستأذنت من الصحاب وتوجهت إليه.. فما إن هممت بفتح بابه حتى غادره رجل أشيب الشعر، محدودب الظهر، كسير النظرة.. وسار وحيدا في الممر الطويل، فخيل إلى أنني قد رأيته قبل ذلك..

ولكن: متى، وأين رأيته؟ لا أعرف.. وفكرتَ للحظات، ونظرت إليه مليّا، ثم لمعت الذكرى في رأسي فجأة.. يا إلهي! إنه سيادة الوزير الخطير المتغطرس، الذي كان حتى أيام قليلة يشمخ بأنفه في وجوه الناس، ولا يسير إلا وحوله «زفة» من الحراس والتابعين.. فكيف تهدل كتفاه، واحدودب ظهره، وبدا عليه كل هذا «الغلب» خلال هذه الأيام القليلة؟!

يا إلهي! أيكون للسلطة كل هذا المفعول السحري في نفوس البعض.. ويكون لفقدها كل هذا الأثر الهدام عليهم؟

لقد بدا لي الرجل وكأنه قد تقدم في العمر سنوات خلال أيام قليلة وكنت قد رأيته قبل هذا اليوم بأسبوع في التليفزيون ممشوق الجسم.. مرفوع الرأس.. تنطق ملامحه بالقوة والسيادة.. فأين ذهب كل ذلك؟!

ولماذا يمشي وحيدا كسيرا، بلا أصحاب، ولا أتباع؟!

ولماذا لم يستعد لمثل هذا اليوم بالتعامل الإنساني مع الجميع والحرص على مودة الآخرين، لكي يجد صديقا ورفيقا حين يرجع إلى مكتبه المهني يزاول عمله الذي يستقبل فيه كل من يملك أجر خدماته المهنية؟!

فإذا سألتني: هل شعرت بالشماتة فيه حين رأيته على هذا النحو.؟..

أجبتك، بلا تردد: لا ورب الكعبة! وإنها شعرت بالرثاء له، وببعض العطف عليه! لأن من أتيحت له الفرصة لأن يكون مفيدا للآخرين وخادما للجميع، فلم ينتهزها بالحق في إقامة العدل، وإعلاء كلمة الله في أرضه، وكسب النفوس، وخدمة الآخرين، وزيادة رصيده عند ربه وعند الناس، إنما يستحق الرثاء لا الشماتة! وبهذا الإحساس نفسه استقبلته في مكتبي بعد ذلك ببضعة أشهر حين جاءني في أمر من الأمور يتعلق بنشاطه، فنهضت لاستقباله عند باب المكتب مرحبا، وأحطته بالحفاوة والاحترام طوال الزيارة، بالرغم من سابق نفوري من طريقة تعامله مع الآخرين حين كان في غرور السلطة.

ولا عجب في ذلك أيضا ولا غرابة؛ لأن من لا يتعظ بما يراه في الدنيا من أحداث، لا يتعلم الحكمة، ولا ينجو كذلك تقلبات من الأيام.

وشكرا لذلك الصديق الذي أيقظ هذه الذكريات القديمة الراقدة في أعماقي، بحواره الممتع معي عن الكبار والصغار في دنيا البشر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ممنـوع «الزِّعيـقّ»

أسعد أوقاتي حين أتوجه لمشاهدة مسرحية جادة في مسرح محترم يخاطب العقل والوجدان.. ولا يتعامل مع الغرائز!

فأنا عاشق قديم للمسرح، لكن ظروف الحياة قد شغلتني عنه في السنوات الأخيرة، فلم أعد أدخله إلا لمامًا.. وفي أغلب الأحيان حين أكون خارج مصر.

فإذا تهيأتُ لقضاء سهرة مسرحية مع عرض جاد ممتع.. فإني أعبر باب المسرح مبتهجاً كأنني على موعد قريب مع السعادة.. وأحرص قبل دخول قاعة العرض على الجلوس أو الوقوف للحظات في مقصف المسرح لأشرب فنجانا من القهوة استعدادا لسهرة سوف تثري الروح والوجدان.. ثم أجلس إلى مقعدي في الصفوف الأمامية أتطلع إلى الستار الأرجواني الذي يحجب عنا خشبة المسرح بشغف، وأترقب الدقات التقليدية التي تؤذن بقرب بداية العرض.. وأشعر ببعض الأسف حين أجد بعض المسارح قد استبدلت بها الآن رنين جرس مزعج.. ثم تخفت الأضواء في القاعة وتنساب الموسيقى التصويرية، فأتبتَّل خاشعاً وأتهيأ للاستغراق في العالم السحري الذي سأدخله..

وحين تنتهي المسرحية أُفرغ انفعالاتي المكبوتة في تحية فناني العرض.. بغض النظر عما إذا كان قد أعجبني أو لم أقتنع به، لأني أشفق على من يتطلع إلى تقدير المشاهدين لجهده فيخذله من يتوقع تقديرهم له أو ينصرفوا عنه في فتور، وهكذا فإني أصفق بحرارة للجميع ثم أغادر المسرح مشحوناً بانفعالات شتى وذكريات قديمة!

نعم.. ذكريات قديمة..

فلقد بدأت حياتي «الأدبية» مؤلفا مسرحيا صغيرا في سن الخامسة عشرة..لكني تعرضت ل- «خيانة ثقافية» قضت - للأسف - على آمالي المسرحية!

فلقد ألفتُ مسرحية فكاهية من فصل واحد ليقدمها فريق التمثيل بمدرستي الثانوية في حفل ختام العام الدراسي، وأشرفت على بروفاتها بالفعل، واصطدمت في سن مبكرة بمشكلة الخروج على النص، واستشطت غضباً حين لاحظت أن صديقي الذي اخترته لأداء دور البطولة في مسرحيتي يضيف إلى دوره كلاما لم أكتبه بدعوى أنه سيفجر الضحك لدى الجمهور، وحذرته بشدة من أن يفعل ذلك خلال الحفل وإلا قاطعته كصديق، وتوقفت عن «التعاون الفنيِ» معه في المستقبل كمؤلف! ووعدني الصديق باحترام التقاليد العريقة احتراماً للمسرح وحفاظا على صداقتي، غير أنني مرضت فجأة في ذلك الحين مرضا شديدا ألزمني الفراش لمدة شهر كامل وأضاع عليّ فرصة مشاهدة مسرحيتي الأولى، كما حرمني أيضا من دخول امتحان الدور الأول للسنة الأولى الثانوية.. فأما الامتحان فلقد عوضتُ فرصته الضائعة بدخول امتحان الدور الثاني في كل المواد، والنجاح فيه، وأما فرصة ميلاد عملي الفني الأول، وترقب استقبال الجمهور له وتفاعلهم معه، وسماع كلمات الإعجاب والإشادة به.. فلقد فاتتني للأبد ولم أستطع تعويضها بعد

ذلك قط، لكني رحتَ أتسقط أخبار «المسرحية» من أصدقائي وزملائي الذين يعودونني في مرضي، ولاحظت بقلق أنهم لا يشيرون بكلمة للمسرحية في حديثهم معي، وفهمت من ذلك أنها قد فشلت فشلاً ذريعا، وأنهم يتعمدون تجاهل الأمر إشفاقا عليّ من مرارة الفشل. ثم عرفت سر الصمت والتجاهل حين اجتزت المحنة المرضية، وبدأت فترة النقاهة.. فقد باح لي صديق منهم بما حرص الجميع على كتمانه عنى خلال مرضي، وهو أن الصديق بطل المسرحية قد خانني وقدم المسرحية «للجمهور» باسمه هو كمؤلف لها وليس كبطل فقط لأحداثها، وأنه كتب في إعلاناتها أنها من تأليف وإخراج وتمثيل: فلان! فكانت هذه هي أول «خيانة ثقافية» في حياتي، وتألمت لها بعض الوقت، غير أنني لم أتوقف أمامها طويلاً، وإنما قلت لنفسي كما اعتدتُ دائما في المواقف الماثلة: إن ما حدث ربما كان خيرا أراده لي الله سبحانه وتعالى.. قد تخفى عني الآن حكمته، ولكنها سوف تتضح لي بالتأكيد بعد حين..

والآن وبعد هذه السنوات الطويلة فإننى أدرك حكمة هذا الخير الذي خفي عني وقتها وتألمت له في حينه.. إذ ربما لو كنتُ قد جربت نشوة الإعجاب وتصفيق الجمهور بما كتبت لصدقت وقتها بالفعل أنني مؤلف مسرحي، ولأهدرت طاقتي وعمري في طريق لم تهيئني له العناية الإلهية.. ولعانيت مرارة الفشل والإحباط حين أطرق بابا لا يستجيب لطرقاتي..

فالحق أنني لم أكن «موهوبا»، في التأليف المسرحي بأي شكل من الأشكال، ولم يكن ما كتبته في هذه المسرحية الهزلية سوى صدى لإعجابي المبكر بمسرحيات توفيق الحكيم التي كنت أقرأها وقتها بشغف، وحاولت تقليدها بغير نجاح يذكر في هذه المسرحية فاستسلمت لما أرادته لي الحكمة الإلهية بتعرضي لهذه الخيانة المسرحية.. وكففت عن تكرار المحاولة بعد ذلك أبدا، وعوضت حرماني المسرحي بمتابعة الحركة المسرحية باهتمام، خصوصا حين انتقلت من مدينتي بالأقاليم للدراسة بجامعة القاهرة، وعرفت الطريق إلى المسرح القومي بالأزبكية.. وذهلت لما أراه على خشبته من فكر راق وأداء مبدع لفنانين عظام، تواري إلى جانبه ما توهمت ذات يوم أنه عمل مسرحي يصلح للعرض على خشبة المسرح! وأدمنت التردد على المسرح القومي، ولاحظت أن دمعي يسخ بلا حياء وأنا أشاهد الفنان «فاخر محمد فاخر» وهو يؤدي مشهد الختام في مسرحية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقي، خصوصا حين يقول وهو جاث يبكي على قبر محبوبته:

ولقد أقول لمن يُبشِّرُني بالخلد ... ما أنا داخلٌ وحدي

لو أنَّ ليلى في النعيم معي ... أو في الجحيمِ.. تساويا عندي!

ثم يدخل في دور الاحتضار، وتختلط عليه الرؤى، ويسمع صوت ليلى يناديه من قبرها، فيشهق شهقة مؤلمة ويقول:

قيس.. ليلى.. رنــةٌ في أذنـي ... رددت: «قيس وليلى» الفلوات

نحن في الدنيا وإن لم ترنا لم تمت ليلى ولا المجنون مات!

ثم يسلم الروح وتسدل الستار.. وكنتُ منذ أن بدأ هذا المشهد قد فقدت السيطرة على دموعي، وشعرت بالخجل من نفسي، فحاولتُ تجفيفها من غير أن ألفت انتباه من حولى، ثم لاحت مني نظرة إلى من يجلس بجواري، وكان رجلا فوق الستين من عمره، فإذا بي أراه يبكي في صمت مؤثر، وتشجعت بذلك.. وتلفت أكثر فإذا بي أرى الدموع في عيون معظم المتفرجين، خصوصا من السيدات، فتخلصت حرجي، ونفست عن مشاعري المكبوتة بارتياح. وحين انفتح الستار مرة أخرى عن «فاخر فاخر» ليرد تحية الجمهور، كانت تحيتهم له صراخا وولولة أكثر منها تصفيقا!

ومن عجب أنني وجدت نفسي في موقف مماثل بعد سنوات طويلة هذه الذكرى، وأنا أشاهد منذ ثلاثة أعوام مسرحية فيكتور هوجو الرائعة «البؤساء» في أحد مسارح ال- «وست إند» بلندن تندّت عيناي بالدمع في مشهد الحب المؤثر بين الفتى الأول والفتاة الجميلة اليتيمة «كوزيت»، ورنوت بحذر إلى صديقي الذي يحضر معي المسرحية واطمأننت حين وجدته مستغرقا في المشاهدة ولا يلحظني ثم سمعت نشيجا خافتا، وتلفت ناحيته فإذا بسيدة شابة تجلس في الصف الأمامي تبكي بحرقة، وزوجها يحتضنها في عطف ويعطيها منديلا ورقيًا لتجفيف دمعها!

فإذا كان «مستقبلي» المسرحي قد ضاع إلى الأبد بسرقة أولى مسرحياتي، فإن متعتي بالمسرح الجاد الراقي وانفعالي إلى درجة التأثر الوجداني الشديد به لم يضيعا مني.. ولم يستطع أحد أن يحرمني منها.

ولقد شكرت الله كثيرا فيها بعد أن حرمني موهبة التأليف المسرحي حين اقتربت من الكاتب المسرحي الراحل محمود دياب - رحمه الله- وكان من أعظم كتاب المسرح الموهوبين في الستينيات والسبعينيات وعايشت بعض عذاباته وإحباطاته، حتى مات قبل أن يبلغ الخمسين حسيرا مهموما ٍبهموم وطنه، وممرورا بالإحساس بالتجاهل وعدم الاعتبار، ووجدت بديلاً عن الأحلام المسرحية متعتي في مشاهدة المسرح، ومتابعة خطوات بعض أصدقائي الذين دخلوا عالمه، سواء بالتأليف أو الإخراج أو التمثيل.

كما وجدت نفسي ذات مرة أمارس من حيث لا أحتسب دور «المخرج» مع صديق لي جاء من مدينتنا في الستينيات للالتحاق بفرق التليفزيون المسرحية، وأقام ضيفا عليّ في شقتي الصغيرة بجوار كوبري الجامعة، وحددت له لجنة الامتحان بفرق التليفزيون موعدا يؤدي فيه أمامها ثلاثة مشاهد مسرحية متنوعة لاختبار قدراته التمثيلية، لابد أن يكون أحدها على الأقل بالعربية الفصحى.. واستشارني صديقي فيما يختاره من مشاهد للامتحان.. فاخترت له من قراءاتي المسرحية مشهد الختام في مسرحية «مجنون ليلى» لشوقي، ومشهد حفار القبور من مسرحية شكسبير الخالدة «هاملت»، ومشهدا من مسرحية «الست هدى» الفكاهية لأمير الشعراء.

ولم أكتف بالترشيح والاختيار فقط، وإنما توليت أيضا تحفيظه هذه المشاهد، بل و «إخراجها» أيضا.. وكانت مشكلتنا وقتها هي البروفات! فلقد كنا نبدؤها عقب عودتي من عملي بالأهرام بعد منتصف الليل، وكان صديقي جهوري الصوت بشكل لافت، فما إن يندمج في الأداء حتى يفلت منه الزمام ويصيح بأعلى صوته بجوار المشهد، فلا تمضي لحظات حتى أسمع طرقا على الباب وأجد بعض الجيران الشاكين من هذا الإزعاج!

وحرصا على العلاقات الودية مع جيراني فلقد نقلنا ساحة البروفات إلى كوبري الجامعة القريب.. فكان منظرنا وأنا أقف أمامه ممسكا في يدي بالنصوص المسرحية، وهو «يجعر» بأعلى صوت في خلاء الكوبري مرددا الحوار بعد الثانية صباحا، يستوقف العابرين بسياراتهم، وقد يطلق أحدهم ضحكة عالية أو كلمة ساخرة.. من هذين المهووسين!

أما ما حدث في إحدى هذه الليالي فإنني لم أنسه قط بعد ذلك، فلقد اندمج صديقي في الأداء، فجلجل صوته مبددا هدوء المكان، فإذا بشرطي شاب يقترب منا منزعجا ويسألنا في ارتياب عن سبب وقوفنا على الكوبري في الثالثة صباحا، وسبب «تشاجرنا» معا وتبادلنا الصياح على هذا النحو!

وشرحنا له السبب وأطلعناه على بطاقة الامتحان الخاصة بصديقي الهاوي، لكنه لم يقتنع بشيء من هذه الترهات وأصر إصراراً شديداً على شيئين.. هما: أن «الصلح خير» ولا داعي للشجار بيننا على هذا النحو.. والثاني هو أنه ممنوع «الزعيق» بعد منتصف الليل مهما كانت الأسباب.. ولسوف يقتادنا صاغرين إلى قسم الشرطة إن لم نمتثل لذلك وانتهى الموقف بامتثالنا بالطبع لرغبته وانسحابنا من الكوبري!

أما صديقي الآخر فلقد كانت رقة مشاعره سببا في تحطيم أحلامه المسرحية على نحو مختلف!.. فلقد كان طالبا بكلية الحقوق وعضوا بفريق التمثيل، وكان مخرج الفرقة وممثلها الأول طالبا «مزمنا» وفناناً موهوبا بحق، أمضى في دراسة الحقوق عشر سنوات، حرص خلالها على التقدم كل عام لمسابقة التمثيل المسرحي للجامعات بمسرحية «لويس الحادي عشر».

وأصر طوال السنوات التي أمضاها صديقي هذا طالبا بالكلية وعضوا بفريق التمثيل، على ألا يعطيه سوى دور حارس شبه صامت في المسرحية، واعدا إياه كل عام بأنه سوف يعطيه دورا أكبر في العام التالي.. إلى أن جاءت الليلة الحاسمة في حياة صديقي المسرحية، وقدم فريق التمثيل بكلية الحقوق مسرحيته المفضلة على خشبة مسرح الأزبكية أمام لجنة التحكيم التي تقدر لكل فريق درجة من مائة درجة، ومضت أحداث المسرحية بسلام إلى أن جاء مشهد الختام، وكانت خطة الحركة المسرحية فيه تقضي بأن يلقي بطل المسرحية الطالب «المزمن» مونولوجا مؤثرا وهوفى فراش الموت ومن حوله الأمير الشاب وأربعة من الحراس، أحدهم صديقي إياه، فما أن يلفظ البطل أنفاسه الأخيرة حتى يجثو الأمير على ركبتيه باكيا ويقول: دعوني وحدي!.. فينسحب الحراس الأربعة بهدوء

ويخلون المسرح إلا من جثمان الملك الراحل فوق فراشه والأمير الحزين، فيلقى الأمير رثاءه المؤثر للملك ثم ينهض مودعا جثمانه ببطء إلى خارج المسرح، ويسدل الستار!

وفي تلك الليلة أدى الطالب المزمن دوره بإتقان مؤثر، وبكي الأمير بدموع حقيقية حتى صاح في ألم: دعوني وحدي! فبدأ الحراس ينسحبون ببطء واحدا وراء الآخر.. إلا حارسا واحدا هو صديقي هذا! فلقد غاب عن الوجود في غمرة تأثره بالمشهد الحزين، ونسى الحركة المسرحية وسالت دموعه بحرارة، وأصبح كل همه هو أن يسمع ماذا سيقول الأمير في رثائه للملك.. إلى أن أفاق من ذهوله على صوت الملك «الراحل» يهمس له من فراشه وهو يتميز غيظا: «اخرج بره يا حيوان»!

وتنبه الحارس للموقف.. لكنه بدلاً من أن ينسحب بهدوء تخيل ما سوف يناله من غضب المخرج بعد انتهاء المسرحية.. فتجمد في موقعه لا يدري ماذا يفعل للحظات أخرى..

فإذا بصوت المخرج يهمس مرة أخرى بغضب أشد: «خربت بيتي.. وضيعت عليّ عشرين درجة.. اخرج يا حيوان»! فتخلص من جموده أخيرا وهرول خارجا، وبالتالي تأثر جلال المشهد بهرولته المضطربة.. وضحك أعضاء لجنة التحكيم!

فما أن انتهى المشهد ورد البطل والأمير تحية الجمهور، حتى هرول البطل إلى الكواليس وهو يزأر كالوحش: «هوة فين؟ هوة فين»؟

لكن هيهات أن يجده بعد أن حدث ما حدث.. فلقد أدرك صديقي ما ينتظره عقب نهاية العرض، فهرول بملابسه المسرحية إلى بيته، وكانت هذه اللحظة هي مشهد الختام بالنسبة لأحلامه المسرحية.. بل ولهوايته للمسرح أيضا! فلم يعد يقترب من خشبته لا ممثلاً ولا متفرجا بعد ذلك قط!

ألم أقل لك: إنني أسعد حالاً من غيري ممن تحطمت أحلامهم المسرحية مثلي لسبب أو لآخر؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سأقول «حكمة»

نعم.. سأقول لك «حكمة» تستفيد بها في حياتك إذا أردت كما استفدت أنا بها كثيرا، وحاولت جاهدا أن أعمل بها في حياتي..

لكني لست «مبدعها، ولا أزعم لنفسي «الحكمة، أو الفلسفة، وإنما أنقلها إليك ممن تعلمتها منه، وناقل الحكمة ليس بحكيم، كما أن ناقل الكفر ليس بكافر!

أما «مبدع» هذه الحكمة الغالية فهو رجل بسيط من أبناء البلد يرتدي الجلباب البلدي النظيف والصديري المزركش تحته، ويلف رأسه «بلاثة» جميلة ناصعة البياض، ويرتدى ساعة ذهبية في معصمه، ويشي مظهره كله بذوق أبناء البلد الأصلاء وظرفهم، وذكائهم الفطري الذي يمكنهم من أن «يفهموها» وهي «طائرة» محلقة في الجو وقبل أن تحط على الأرض!

أما «الساحة» التي أطلق فيها هذه «الحكمة» فقد كانت صالة مسرح محمد فريد في فترة الستينيات، وكان المسرح أيامها يعرضٍ مسرحية جديدة لمؤلف جديد لم يكتب قبلها، ولم يكتب بعدها، لأنه لم يكن مؤهلاً من الأصل للكتابة المسرحية ولا موهوبا فيها، لكن العهد وقتها كان عهد الاشتراكية الذي تسيطر فيه الدولة على كل مؤسسات الفكر والفن والثقافة، ويتولى مراكز القيادة في معظمها قيادات من أهل الفكر الماركسي الذين خرجوا من السجون والمعتقلات وتحالفوا مع النظام، وشغلوا مراكز قيادية في الحياة الأدبية والفنية في البلاد باعتبارهم من «أهل الثقة»، بغض النظر عن الخبرة. وكان مؤلف هذه المسرحية اليتيمة مناضلا ماركسيا سابقا، قضى عدة سنوات في المعتقل، وخرج من السجن فعين في إحدى المؤسسات التي تسيطر على الحركة الفنية، وبحكم موقعه الجديد أصبح صاحب دور ونفوذ في عالم المسرح، فتطلع لأن يكتب مسرحية يخلد بها اسمه في تاريخ الفن، واستعانٍ بثقافته العريضة على ذلك، ولم يتوقف لحظة أمام نفسه ليسألها: هل يملك أصلاً الموهبة التي تؤهله لذلك أم لا؟ والنفس بطبيعتها قد تطمح أحيانا لنيل ما لا ترشحه له قدراتها، وإغراء السلطة كالخمر يدير الرؤوس ويعمي الأبصار عن القدرات الحقيقية للإنسان في كثير من الأحيان. ولقد كانت كل الفرص متاحة أمامه، فلماذا لا يكتب مسرحية تمثل فوق خشبة المسرح وتحمل لافتاتها اسمه، وتُعقد الندوات الأدبية لمناقشة مستواها الرائع وفكرها العميق؟ وبم يزيد عليه توفيق الحكيم الذي تتنافس فرق الدولة المسرحية على تقديم مسرحياته؟

وهكذا كتب الرجل مسرحيته أو «درته اليتيمة» كما يقول نقاد الأدب عن العمل الأدبي الواحد لأحد المفكرين، ولم يكن ينوي بالطبع أن تكون هذه المسرحية درته اليتيمة حين كتبها، لكن تطورات القصة التي سأرويها لك فيها بعد هي التي قضت عليها بذلك.

فلقد جاءت المسرحية عملاً ذهنيا جافا لا تتوافر فيه معظم قواعد الدراما المتعارف عليها.. ولا تعدو أن تكون مناقشات طويلة متصلة حول قضايا فكرية

عويصة كقضية «النشوء والارتقاء» وأصل الكون ومصيره إلخ.. كما كانت طويلة طولاً غير مألوف بالنسبة للمسرح.

لكن ماذا يهم وأعضاء لجنة القراءة بالمسرح الذين سيقررون قبولها معظمهم من الرفاق المتعاطفين مع المؤلف من باب الالتزام العقائدي وليس من باب الإعجاب بالموهبة؟ وماذا يعرقل المؤلف ومسؤولو مؤسسة المسرح الذين سيعتمدون ميزانية إنتاج المسرحية من الرفاق القدامى، وسوف يفعلون ذلك تكريما لشخصه وليس إعجابا بمسرحيته؟!

وكان ما توقعه المؤلف بالفعل، فشقت المسرحية طريقها في لجان مؤسسة المسرح شامخة «كالعروس».. تدعمها تقارير اللجان المختصة التي تشيد بعمقها وارتفاع مستواها.. وتصدى لإخراجها مخرج صديق لم يكن من أهل الفكر الماركسي، لكنه يريد أن يعمل ويفرغ فنه على خشبة المسرح، ويستفيد من دعمِ الرفاق لهذه المسرحية «الأعجوبة» في نظرهم، وقرأ النص فوجده جافا مملاً، وتحير.. هل يرفضها فيمضي بضع سنوات أخرى بلا عمل، ويستثير عليه عداء الرفاق واتهاماتهم التقليدية له ولأمثاله بالرجعية الفكرية ومعاداة حركة التاريخ.. إلخ؟ أم يقبلها ويجتهد لأن يخفف من جفافها بخبرته وفنه وبعناصر الفن المسرحي الأخرى؟

وانتهى إلى الرأي الثاني، وقرر أن يسند أدوارها لعدد من نجوم الكوميديا المشاهير وقتها لكي يستفيد بشعبيتهم لدى الجمهور على مضمون المسرحية الجاف. ونجح في إقناعهم بذلك فعلاً، وبدأ في إخراجها.. وراقبته عن قرب خلال التجارب المسرحية، وأشفقتُ عليه كثيرا مما يعانيه من ضغوط شديدة من كل الاتجاهات.. من أبطال المسرحية الذين يشكون له من عقم الحوار.. ومن المؤلف الذي لا يقبل تغيير كلمة واحدة من حواره أو اختصار بضعة سطور منه.. كأنه شكسبير العظيم لا يجوز المساس بكلماته الشعرية البليغة!

واضطر المخرج لتقديم النص الكامل للمسرحية كما وضعه المؤلف، رغم اعتراضه على طوله، وجاءت البروفة الأخيرة التي تسبق ليلة العرض الأولى للمسرحية أو «البروفة جنرال» كما يقول أهل المسرح، فبدأ العرض في التاسعة مساء وانتهى في الخامسة والنصف صباحا!

وتجدد الخلاف مرة أخرى بين المؤلف والمخرج الذي أصر على اختصار ثلث حوار المسرحية، وإلا فإنه سوف ينتحر الآن وعلى الفور!

وتكتل «النقاد» الذين شهدوا البروفة الطويلة حتى تساقطوا صرعى الإجهاد من ثقل وطأتها على المؤلف ليقنعوه بالاستجابة لرغبة المخرج لصالح العمل والجمهور، فسلم بذلك مضطرا وانصرف غاضبا، وواصل صديقي المخرج عمله في هذه المسرحية القاتلة بلا نوم حتى موعد العرض في الليلة التالية.

واجتذبت المسرحية في ليلتها الأولى عددا كبيرا من الجمهور جاءوا إلى المسرح متوقعين أن يشهدوا مسرحية ضاحكة ممتعة، اعتمادا على أسماء أبطالها

المشاهير، فإذا يجدون أنفسهم أمام مشهد واحد لا يتغير لمدة خمس ساعات، ومناقشات مملة عن نشأة الحياة.. وأصل الكون.. وغير ذلك القضايا الفلسفية التي لا يحتملها الجمهور العادي، ولا يملك أن يتصدى لها إلا مؤلف عظيم الموهبة يصوغها في قالب من الأحداث الدرامية الممتعة، وليس في حوارات طويلة بين أشخاص يتناقشون وكأنهم في ندوة مدرسية!

وتكشّفت الحقيقة عارية وهي أنه لا متعة ولا فن في هذه المسرحية، فتراجع الإقبال الجماهيري عليها سريعا برغم أسماء أبطالها المحبوبين. أما في صفحات النقد المسرحي التي كان يشرف على معظمها رفاق المؤلف فقد كان الحال مختلفا إلى حد كبير، وتوالت المقالات التي تشيد بالمسرحية.. و «فن» كاتبها المثقف، وعبقريته الدرامية إلخ.. واستمر عرض المسرحية رغم تراجع الإقبال عليها ولو كانت لمؤلف من غير «الأنصار» لصدر قرار على الفور بإيقافها.

وكنت أتردد عليها كثيرا في ذلك الوقت لألتقي بمخرجها الصديق، وأشاهد بعض فصولها من حين لآخر، إلى أن جاءت ليلة كان صديقي المخرج فيها مكتئبا أشد الاكتئاب بما يشنه عليه المؤلف من هجوم في الصحف والجلسات الخاصة مدعيا أنه شوه المسرحية باختصارها، وأنه لم يرق بإخراجه لها إلى مستواها.. إلخ

وتحدثنا عن ذلك طويلاً، وحاولت قدر جهدي التخفيف عنه بأنه لا يصح إلا الصحيح في النهاية، وأنه حتى النقاد الذين يتعاطفون «عقائديا» مع المؤلف في خلافه معه يعرفون في قرارة أنفسهم أن رفيقهم عاطل من الموهبة المسرحية، وأنه لولا إخراجه لما توافر فيها الحد الأدنى المقبول من الشكل المسرحي.

ثم دخلنا صالة المسرح لنجلس بين الجمهور القليل الذي يشاهدها ونروح عن نفسينا بعض الوقت، فرأيت في تلك الليلة ذلك الرجل من أبناء البلد الذي حدثتك عنه في بداية المقال، وكانت رؤيتنا له ومتابعتنا فعل مُفَرِّجا لنا من الكرب الثقيل من حيث لا نحتسب، فلقد كانت المسرحية تحكي عن نشأة الكون وخلق الإنسان الأول، ثم المرأة الأولى، ثم من تكاثر بعدهما من الأبناء والأحفاد، ولأنه «الإنسان الأول» قد كان عليه أن يعلم الأبناء حقائق الحياة والممارسات الأولى لكل الأشياء، ويمهد لكل «حقيقة» جديدة يسوقها إليهم بصيحة درامية عالية هاتفا: سأقول حكمة!

وينصت الأبناء والأحفاد ويرهفون السمع، فيقول:

يحتاج كل رجل إلى المرأة لكي يسكن إليها وينجب منها الأبناء- ثم تتتابع أحداث المسرحية بعد ذلك - أو قل حواراتها حيث لا أحداث في الحقيقة - فيهتف الإنسان الأول مرة أخرى نفس الهتاف: سأقول حكمة، ثم يقول:

ترضع المرأة وليدها لمدة عامين قبل فطامه!

وهكذا طوال المسرحية المملة!

ويبدو أن ذلك الرجل من أبناء البلد كان يمر بالمصادفة أمام مسرح محمد فريد تلك الليلة، فرأى صور نجوم الكوميديا المشاهير الذين يؤدون أدوارها وقرأ أسماءهم،

فاشترى لنفسه تذكرة في الصفوف الأولى، ودخل إلى قاعة المسرح ممنيًا النفس بسهرة بهيجة ضاحكة مع هؤلاء النجوم المحبوبين، وبدأ عرض المسرحية وتوالت مشاهدها وحواراتها فلم يضحك، ولم يجد فيها ما يبهجه أو يمتعه أو يثير اهتمامه، لكنه لم يتعجل الأحداث، وواصل المشاهدة في صبر آملاً أن تزداد الأحداث بعد ذلك سخونة أو سرعة، وتحدث المواقف الكوميدية التي تثير الضحك وتشد الانتباه، لكن المناقشات السمجة البطيئة تواصلت إلى ما لا نهاية حتى مضت ساعة بغير أن يبتسم ابتسامة واحدة، أو يستمتع بشيء مما يراه، فحسم أمره في لحظة خاطفة، ونظر في ساعته الذهبية.. ثم نهض من مقعده وخرج من الصف إلى الردهة التي تتوسط المسرح بين المقاعد.. وصاح بنفس لهجة بطل المسرحية ووجهه إلى خشبة المسرح وبأعلى صوت ممكن: سأقول حكمة!

فالتفتت إليه أنظار المشاهدين في دهشة، وتوقف الممثلون عن التمثيل والتفتوا له متعجبين، فكرر صيحته مرة أخرى بنفس الطريقة المسرحية:

- سأقول حكمة!

ثم قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

واستدار ناحية باب الخروج وغادر قاعة المسرح بخطوات عسكرية نشيطة معلنا رأيه في المسرحية والهراء الذي تقدمه بأبلغ وأغرب وأطرف تعبير ممكن عن الرأي!

ومرت لحظة سكون لم يكن يتردد خلالها بالمسرح سوى وقع خطواته العسكرية على الأرض.. ثم أدرك الجميع الموقف فانفجروا في الضحك الصاخب، وانفجر الممثلون فوق الخشبة ضاحكين وفقدوا اندماجهم المسرحي لعدة دقائق.. ولم يتمالك بعضهم نفسه من أن يدق على كف زميله ضاحكا بانفعال شديد، بل ومتشفيا أيضا في مؤلف المسرحية، وعباقرة مؤسسة المسرح الذين يصرون على استمرار عرضها رغم الفشل الواضح.. وفي كل الأدعياء والمحاسيب من أمثالهم!

أما أنا وصديقي المخرج فلقد أجهدتنا كثرة الضحك والانفعال العنيف بهذا الموقف الغريب الممتع، حتى رحنا نلتقط أنفاسنا بعدها بصعوبة. وحين تمالكت نفسي بعد ذلك دفعت صديقي المخرج في كتفه وأنا أنهض من مقعدي قائلاً له: ماذا تنتظر؟.. هيا بنا نلحق بهذا «الناقد» الصادق مع نفسه - والذي لا يغير ضميره مجاملة لأحد- لنتعرف عليه!.. وهرولنا معا خارج المسرح، لكننا لم نلحق به للأسف ولم نجده.. فلقد ذاب في زحام المارة بشارع محمد فريد تاركا وراءه ردا أبلغ من كل رد على كل من يدعي لنفسه ما ليس فيها من قدرة وموهبة، وكم تمنيت لو كنتُ قد لحقت به وتعرفت عليه لأبلغه بإعجابي بذكائه الفطري، وخفة ظله التلقائية وعبقريته البديهية في التعبير عن الرأي بغير الحاجة إلى كل مصطلحات المثقفين.. وكلماتهم العويصة! فلقد كان «صاحب رأي» وليس مجرد متفرج تافه الشأن!

ولقد كان يستطيع أن يغادر قاعة المسرح في هدوء وينجو بنفسه من سجنها الثقيل عليه بغير أن يشعر به أحد، لكنه لم يشأ أن يفعل ذلك وأراد أن يقول «كلمته» في هذه المسرحية الفاشلة السمجة قبل أن يغادرها، كما أنه رجل عف اللسان بغير شك، فقد قال رأيه عمليا في المسرحية بغير أن ينطق بكلمة نابية واحدة أو يخرج عن حدود الأدب في التعبير، وإنها استلهم من ساحة المسرحية نفسها ببديهته السريعة «الشكل الدرامي» الذي يغادر به قاعة المسرح ويقول رأيه، فأعلن عن «الحكمة» التي يريد أن يقولها، ثم نطقها فإذا بها تحية الوداع للحاضرين وللمسرحية التي لا تعجبه.. وللخزعبلات التي تتردد فيها.

فكأنها قد عمل من حيث لا يدري بتلك العبارة الشهيرة التي يرددها أهل الرأي الآخر في مواقف الاختيار الصعبة، ويمهدون بها لمواقفهم التي قد تجر عليهم المتاعب.. وهي: قل كلمتك وامش!

أي قل رأيك كما يمليه عليك ضميرك وكما تؤمن به.. ولا تنتظر ثناء من أحد.. ولا تأبه لعقاب أو ضرر ينالك بسببه!

ولقد ذكرني هذا الرجل بعبارة شاعر الهند وفيلسوفها طاغور من أن الزمن هو أشرف النقاد، لأنه الناقد الوحيد الذي يُعلى الحق ويسقط الباطل ولا ينحاز لأحد!

وقد كان هذا الرجلِ واحدا من «أشرف النقاد» في تاريخ الحركة المسرحية في بلادنا.. وأخفهم ظلاً.. وأكثرهم صدقا مع النفس وذكاء في التعبير عن الرأي.. فلقد قال لنا بأبلغ عبارة إنه لا يصح في النهاية إلا الصحيح، مهما حاول بعضنا أن يلبس الباطل ثوب الحق.. أو يدعي لنفسه ما ليس لها من قدرة أو موهبة.. أو يقحم نفسه على عالم ليس من أهله اعتمادا على نفوذه أو نفوذ أنصاره، وأنه حتى لو استطاع أن يفعل ذلك وهيئ له أنه قد نجح فيه، فلن يمضي وقت طويل إلا وينكشف الزيف.. ويذهب الزبد جفاء.. ولا يبقى في الأرض إلا ما ينفع الناس.

«ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه» في النهاية كما يقول لنا رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

فهل أدركت يا صديقي مغزى «الحكمة» العميقة التي أردتُ أن أنقلها إليك عن هذا الرجل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هدوء من فضلك

في أحد شوارع مدينة صغيرة وهادئة في الوسط الغربي من أمريكا، شاهدت هذا المنظر: رجل مسن - لعله في الثمانين من عمره. يجلس على درج مدخل العمارة الصغيرة التي يقيم بها، ومن حوله عدد من الحمام، العجوز يلتقط الحب الذي يلقيه إليه ويشرب من إناء الماء الذي يضعه له، وهو يرقب الحمام حينا، ويحملق في الخلاء حينا آخر، وسكينة الدنيا كلها تحيط به وبالمكان كله.

وعرفت من قريبي الأستاذ الجامعي الشاب الذي كنت أزوره في هذه المدينة الأمريكية الهادئة، أنه يرى هذا الرجل في هذا الموعد نفسه كل يوم منذ بضع سنوات.

فراقبته للحظات وتأملت دماء الصحة والعافية وعلامات «روقان البال» البادية عليه، وقدرت أنه رجل يعيش تلك المرحلة من العمر التي يسمونها في الغرب «السن المسكرة» أو «SugarAge» بعد أن أدى دوره في الحياة وشبع من العمل الشاق، وأن له أن يقضي حياته في سلام بلا لهاث ولا جرى وراء شيء، ويساعده هدوء المكان الذي يقيم فيه وخلوه من ضجيج المواصلات والكاسيتات والميكروفونات على الاستمتاع بحياته وأوقاته. نظرت إليه مرة أخرى وتمتمتُ هامسًا:

يا بَخْتُه!

فمنذ سنوات وأنا أحلم حلما مستحيلاً.. هو أن أقضي أيامي في مكان هادىء أستطيع أن أقرأ وأكتب فيه بغير أن يفزعني صوت صاخب، أو يقطع عليّ أفكاري نعيق ميكروفون أو كاسيت أو كلاكس سيارة أو طنين زحام البشر.

ومنذ سنوات خيل إليّ أنني قد حققت هذا الحلم وأصبحت لي «صومعة» أهرب إليها من ضجيج الحياة، فأكتب فيها «بريد الجمعة» وقصصي القصيرة ومقالاتي الأدبية التي أصدرها فيما بعد في كتبي، وتحقق ذلك حين تسلمتُ شقة في الهرم حصلت عليها لابني، ورأيتُ أن أستفيد منها إلى أن يحتاج إليها في المستقبل.. فأثثتها بأثاث بسيط، لكنه لا يخلو من لمسة فن أو جمال، ونقلت إليها فائض كتبي وأوراقي التي يضيق بها مسكني، وأعددت لنفسي فيها مكتبا كبيرا، وزينتُ جدران الشقة بلوحات مقلدة وأصلية، وعلقت عليها صورة زيتية لأديبي المفضل نجيب محفوظ، وأخرى لأمير القصة القصيرة الروسي أنطون تشيكوف، وزودت مطبخها بماكينة لصنع القهوة وبراد كهربائي لصنع الشاي، وهما عدتي وزادي عند الكتابة.. وافتتحت «الواحة الجديدة» عازما أن أقضي فيها يومين في نهاية كل أسبوع، أكتب خلالها «بريد الجمعة» وما تسمح به عرائس الإلهام.. مستمتعا بهدوء المكن وسكينة الشارع الضيق الذي تطل عليه الشقة، ومعظم مبانيه الجديدة خالية من البشر.

وتوجهت لواحتي في يومي الأول معها حاملاً كتبي وأوراقي، بدلت ملابسي بملابس مريحة، وتذكرتُ وأنا أفعل ذلك أديبى المفضل في الأدب الفرنسي أونوريه

دي بلزاك، الذي كان يتهيأ للكتابة بارتداء رداء راهب، إشارة لما تتطلبه الكتابة من تجرد من الدنيا ورهبنة.

واعتزمت أن أقضي المساء والليل مثله أحتسي القهوة والشاي وأكتب.

وما أن جلستُ إلى مكتبي واستغرقتُ في الكتابة حتى فزعتُ صوت دق متواصل شبيه بدق آلات الإيقاع في الفرق الموسيقية الغربية، لكنه دق لا تصاحبه موسيقى.. وإنما طرق متواصل يبدأ خفيفا ثم يشتد تدريجيا إلى أن يبلغ ذروته بطرقة هائلة تطير الأفكار من رأسي والأوراق من أمامي، وتساءلتُ ذاهلاً عن سر هذا البلاء غير المتوقع.. وراعني أن الدق يتوقف لحظة واحدة بعد الطرقة الهائلة، فيخيل إليّ أنه قد انتهى وأواصل الكتابة، فما أن أفعل حتى يبدأ من جديد وبنفس الترتيب إلى أن يصل إلى ذروته المفزعة!

حاولتُ تجاهل هذا الدق المزعج ومواصلة الكتابة فلم أنجح في ذلك، فقد كانت الطرقة الأخيرة تفزعني وتشتت أفكاري، ولحظة سكونه تداعب أحلامي في استعادة الهدوء المفقود. ثم أصاب بالإحباط مع استئناف الدق من جديد.

وبعد عدة محاولات فاشلة مع الكتابة استنجدت بالبواب لإنقاذي.. وعرفت منه أن مصدر هذا الدق شاب يقيم في الشقة المواجهة «لواحتي» الهادئة مباشرة.. وأنه عازف «درامز» بالفرق الموسيقية ويتطلع للعمل كعازف لهذه الآلة المفزعة، ولهذا فهو يقضي ساعات اليوم وحتى الهزيع الأخير من الليل في التدريب على آلته!

يا إلهي!.. أهذه هي «الواحة» التي فررتُ إليها من ضجيج المرور تحت نافذة مسكني، والتي تؤرقني بالرغم من أنها تقع بالدور السادس؟.. وكيف أكتب «بريد الجمعة» هذا المساء وسط هذا الدق اللعين؟

تحدثتُ إلى الشاب من شرفة المسكن بواسطة البواب، وشرحت له ظروفي وكيف أن سائقا من «الأهرام» سوف يحضر إليّ في الصباح ليتسلم مني «بريد الجمعة» لكي يلحق بموعد الطبع، ورجوته أن يتوقف عن الدق بعض الوقت رحمة بي! فكان شابا مهذبا واعتذر اعتذارا رقيقا عن إزعاجه لي بتدربه المستمر على آلة الدرامز، لكنه اختتم اعتذاره برجاء عجيب لي: هو أن أصبر عليه «شهرا» واحدا فقط أتحمل خلاله هذا الدق المتصل لأنه يستعد لأداء امتحان في الدرامز يتوقف عليه مستقبله وأمله في الالتحاق بإحدى الفرق الكبيرة، لهذا فهو مضطر للتدريب ليل نهار وإلا ضاعت منه الفرصة!

كدت أصرخ باكيا من قسوته عليّ وهو يرجوني الصبر على هذا الطرق المستمر شهرا كاملاً وليس ساعة أو بضع ساعة! ويئست من المحاولة فغيرت خطتي معه، وقلت له إنني أقدر «طموحه» الفني، وأتوقع له من خلال ما سمعت من دقه «الجميل» أنه سيكون عازف درامز عظيما في المستقبل القريب بإذن الله، لكن النجاح لا يتحقق بالتدريب الشاق وحده، وإنما بتقسيم الوقت كذلك ومنح الجسم ما

يحتاج إليه من راحة كافية، ولهذا فإني أرجوه أن يكتفي من التدريب هذه الليلة بهذا القدر لكي ينهض في الصباح التالي نشيطا يواصل الاستذكار بلا كلل!

ولستُ أدري، هل اقتنع هذا الشاب بما قلته له، أم أنه شعر بشيء من الإشفاق عليّ فوعدني بأن يتوقف بعد ساعة واحدة لأنه يريد أن يحفظ «مازورة»- أي جملة موسيقية إيقاعية - ضرورية للغاية لنجاحه في الامتحان؟ وشكرته بحرارة على إنسانيته وعدت لمواصلة الكتابة، فكنت أكتب جملة أو جملتين خلال الطرقات الخفيفة والمتوسطة، ثم أفزع وأتوقف عن الكتابة أو يسقط مني القلم عند دقة «الدوم» الختامية الرهيبة، وهكذا إلى أن شبع من التدريب.. وكتبت «بريد الجمعة» بعد معاناة شديدة، وفي الصباح غادرت «الواحة» عازما مقاطعتها حتى ينتهي هذا الشاب من تدريبه، ودعوت له من قلبي بالنجاح في الامتحان، لكن الله سبحانه وتعالى لم يستجب فيما يبدو لدعائي، فقد رجعت إلى «الواحة» المهجورة بعد شهر فوجدته يواصل التدريب في النهار والليل، وعرفتُ أن الحظ لم يحالفه في اجتياز الامتحان، وأنه يتدرب بهمة ودأب ليجد لنفسه فرصة أخرى!

وشهرا بعد شهر وأنا أسمع طرق الباتري أو الدرامز المزعج.. حتى اعتاد جسمي الانتفاض مع دقة «الدوم» الشهيرة في ختام جملته الموسيقية المكررة، وحتى خيل إليّ أنني أصبحتُ أنتفض تلقائيا قبيل أن يصل الشاب إلى «الدوم» الرهيب، على طريقة رد الفعل المنعكس الشرطي عند عالم النفس الروسي الشهير بافلوف.

وشهرا بعد شهر زحف العمران على الشارع الضيق بالسيارات وأجهزة الكاسيت والميكروفونات، وافْتُتِحَ في العمارة التي تقع فيها الواحة محل صغير لسباك يأتي إليه صاحبه راكبا الموتوسيكل بصوته «الرقيق»! أه الشاب عازف الدرامز فقد راح يتدرب في الصباح وفى الظهر وفي المساء والليل، على طريقة لا يأس مع الدرامز، وتبدد حلم الواحة الهادئة وصومعة الكتابة على طريقة بلزاك، وأصبحت الشهور الطويلة تمضي دون، أقترب منها، ثم سلمت باليأس من أي أمل فيها فتخلصت منها، وشجعني على ذلك أنها لم تنل رضا الأسرة من البداية.

أما حين غالبتُ ترددي منذ عامين، وانتقلتُ من المسكن الذي عشت فيه ثلاثين عاما وألفته وألفني، وعرفت جيراني فيه وعرفوني، إلى مسكن أوسع.. فلقد تعلك بالأمل في أن يكون أقل ضجيجا لأنه لا يطل على شارع حافل بكل وسائل المواصلات ليل نهار كما كان الحال في مسكني السابق، وكان هذا الحلم أن يتحقق نسبيا بالفعل، لولا أنني نهضت من نومي في اليوم الأول من انتقالي إليه على أصوات خيل إليّ معها أن الشاب عازف الدرامز في الهرم قد طاردني إلى مسكني الجديد وأقام تحته! فلقد صحوت مفزوعا على طرقات مماثلة لطرقاته على آلته، غير أنها من النوع النشاز الذي لا تناسق فيه، وعجبتُ من أين تجيء هذه الطرقات المتتالية.. ثم تساءلتُ: وما هذا الصوت الرهيب الذي يشبه - مع الفارق - نعيق آلة «الأبوا» في الأوركسترا السيمفوني؟.. وغادرت فراشي متضايقا، وخرجت إلى الشرفة لأبحث عن سر هذه الأصوات المزعجة، فإذا بي أرى تحت نافذة غرفة نومي مباشرة 20 أو 30 عازف درامز كعازف الهرم، يعزفون

سيمفونية الدق والخبط والإزعاج، ولكن بالشواكيش والمناشير والمطارق، أما آلة «الأبوا» فقد اتضح أنها آلة كشط الخشب الكهربائية..

يا ربي.. إنها ورشة نجارة كاملة تعمل في الشارع الذي يفصل بين عمارتي والعمارة المقابلة.. وبعد أن زالت الدهشة وتحريت الأمر علمت أن عمال الورشة. وهي ورشة حكومية تابعة لمصلحة الضرائب على المبيعات، يضيقون بحرارة الجو داخل ورشتهم فيخرجون بآلاتهم «للعزف» في الهواء الطلق، وأن هذا الحال سوف يستمر إلى ما لا نهاية لأنهم في هذه الحالة لا يتدربون استعدادا لأداء امتحان ينتهي في موعد محدد، وإنما يمارسون عملهم اليومي الدائم والمستمر.

فما المخرج من هذه الوكسة؟ وكيف لم أكتشف أمر هذه الورشة السيمفونية عند التعاقد على هذا المسكن؟

لابد أنني قد تعاقدت عليه في إجازة حكومية كانت الورشة خلالها مغلقة، وكان الشارع هادئا نسبيا، ثم انتهت الإجازة وعادت الحياة إلى طبيعتها.

لقد كانت «ملحمة» أخرى علمت خلالها أن سكان العمارة قد استعانوا على هذه الورشة الحكومية بشرطة المرافق أكثر من مرة، فكانت تزيل إشغالاتها وتجبر عمالها على العمل داخل جدران الورشة، ويستمر الحال هادئا بعض الوقت ثم يأمنون الحساب، فيخرجون إلى الهواء الطلق من جديد.. وهكذا، ولم أفكر في الاستعانة على هذه الورشة بشرطة المرافق، وإنما آثرت كعادتي أن أسلك الطريق الودي لحل المشكلات، وشكوت حالي إلى زميلة عزيزة لي ب- «الأهرام» لها خبرة في الشؤون الاقتصادية والضرائبية، وتتعامل مع الضرائب كصحفية، فتحدثت الزميلة إلى الرجل الفاضل مدير عام مصلحة الضرائب على المبيعات، وتفضل الرجل مشكورا بإصدار تعليماته للمهندس مدير الورشة بإلزام عمالها بالعمل داخل جدرانها وليس في الشارع، وبألا يمارسوا خارجها سوى الأعمال غير المزعجة كدهان الأثاث

وهدأ الحال بعض الوقت.. ثم هاجت الآلات الإيقاعية من جديد تحت نافذة غرفة نومي، حتى ترحمت على أيام عازف الهرم.

ولجأت إلى الصديقة مرة أخرى، فاستاء الرجل لعدم الالتزام الدقيق بتعليماته، وأصدر تعليمات مشددة بالالتزام بها.. واستقر الحال إلى حد كبير.. لكنني وعازفي هذه الورشة لا نزال نمارس لعبة «القط والفأر».. يهدأون بعض الوقت فأرضى وأستريح، ويهيجون في أوقات أخرى فأشكو وأتذمر.. ولله الأمر من قبل ومن بعد!!

ألا تعرف مكانا «هادئا» بحق أستطيع أن أكتب وأقرأ فيه بلا درامز ولا مطارق.. ولا نعيق للميكروفونات والسيارات والكاسيتات والميكروفونات؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نعم.. لا.. ربما!

اسأل أيَّ إنسان يقابلك هذا السؤال البسيط: هل أنت سعيد؟

وسوف تحصل منه غالبا على هذه الإجابات الثلاث المتناقضة في نفس الوقت وربما أيضا بنفس هذا الترتيب. إذ سوف يجيبك في البداية وبغير تفكير: نعم. وقبل أن تطلب منه أن يحدثك عن أسباب سعادته، سيكون قد راجع نفسه «وتذكر» بعض أوجه النقص في حياته، وبعض أماله المحبطة وتطلعاته المحرومة وهزائمه الشخصية «فيصحح» إجابته الأولى مستدركا ويقول لك: لا!

وقبل أن تطلب منه أن يشرح لك أسباب تعاسته، سيكون قد راجع نفسه أيضا للمرة الثانية «وتذكر» بعض ما يرضى عنه في حياته، وبعض ما أنعمت عليه به السماء من نعم جليلة يطالبه ضميره الديني بألا يجحدها أو يتجاهلها لكيلا «تسحبها» منه الأقدار وتعطيها لمن يشكر ربه عليها، فيستدرك مرة أخرى ويقول لك حائرا: لا أدري، ربما كنت سعيدا.. وربما لم أكن.. لكن الحمد لله على كل حال!

وهكذا نحن جميعا أمام هذا السؤال البسيط، وفى هذه الإجابة الثلاثية تتمثل حيرة الإنسان الأزلية مع السعادة وحلمه الأبدي فيها!

وبعض أسباب هذه الحيرة يكمن في أن الإنسان يعتقد دائما أن هناك من هم أسعد حالاً منه، وبالتالي فهو لم يبلغ بعد «مثال» السعادة الذي يتطلع له ويلمس له صورا براقة لدى الآخرين، وبعضها يرجع إلى الخطأ البشري القديم الذي تصوره هذه العبارة الحكيمة للأديب الأيرلندي العظيم برنارد شو حين قال: إن كل من تؤلمه ضروسه يظن أن كل من لا يشكون من أسنانهم سعداء!

وبعضها يرجع كذلك إلى أننا كثيرا ما نجهل أسباب السعادة الحقيقية المتاحة لنا، ولا نعرف لها قدرها إلا إذا حرمتنا الأقدار منها، فبكينا عليها وأدركنا كم كنا حمقى وأغبياء حين لم نلتفت إليها في حينها، ولم نستمتع بها كاملة حين كانت بين أيدينا، وأجمل تصوير لهذه الحالة هو ما جاء على لسان الفتاة العمياء «جرتروود» في حوارها مع القس الذي تبناها وعلمها الأشياء، في رواية «السيمفونية الريفية» للأديب الفرنسي أندريه جيد، حين قالت له:

إن الذين يبصرون لا يدركون سعادتهم.. لكنني أنا التي لا أبصر أدرك سعادة السمع!

ومن أسباب هذه الحيرة أيضا أننا نحن البشر لا نريد فقط أن نكون سعداء، بل وأسعد أيضا من الآخرين.. وبما أننا نتصور غالبا أن الآخرين أسعد حالاً مما هم عليه بالفعل، فهيهات أن نبلغ هذه الغاية العزيزة أو نعترف لأنفسنا با نحن فيه من سعادة.

أن أهم هذه الأسباب وأعمقها أثرا في تقديري فهي أننا نتعامل مع حياتنا في كثير من الأحيان بمنطق التاجر غير الأمين الذي يريد أن يتهرب من سداد ضرائبه

الكاملة على أرباحه، فيعمد إلى تضخيم الخسائر تقليل الأرباح، ليجيء حسابه الختامي في النهاية خاسرا ولا تستحق الدولة عنه أية ضريبة!

ولسنا نفعل ذلك بوعي كامل به أوعامدين، لكنها طبيعة الإنسان التي تميل دائما للرثاء للنفس، وإلى استصغار ما نالته من عطايا الحياة والرغبة الدائمة في الاستزادة منها على طريقة البحر - في المثل الشعبي القديم - الذي يحب الزيادة دائما ويكره النقصان.

وبهذا الميزان المائل.. كثيرا ما يعد الإنسان حسابه مع السعادة فيسجل في الخانة الأخيرة منه أنه حساب خاسر وليس رابحا!

انظر مثلاً إلى ذلك البطل العربي والخليفة الأموي في الأندلس «عبد الرحمن الناصر» الذي ولى الحكم وهو في الحادية والعشرين من عمره، واستقبلت الأمة ولايته بالاستبشار والرضا والأمل في أن يعيد توحيد مملكة العرب في الأندلس بعد أن تمزقت معظم أطرافها بالعصيان والتمرد، فهب الخليفة الشاب المحبوب من رعيته وقاد جيوشه لمحاربة الولايات الخارجة عليه، وأخضعها جميعها، واسترد كل ما ضيعه أسلافه الضعفاء، وسار النصر والفوز دائما في ركابه حتى وصفه ابن خلدون في تاريخه بعبارة «حلف السعود»، أي حليف السعد والفوز والانتصار، واستغرق ذلك منه 18 عاما حتى أحكم فرض سلطانه على المملكة ووسع رقعتها، ثم دعا بنفسه خليفة للأندلس، وتسمى باسم «الناصر لدين الله»، واستمتع بالقوة والمجد والنفوذ وحب الجماهير بعد ذلك طوال 32 عاما، ثم مات في السبعين من عمره بعد أن حكم بلاده 50 عاما حقق خلالها من جلائل الأعمال ما يعجز الخيال عن تصوره.. انظر إلى هذا البطل المنتصر محبوب الأقدار ماذا كتب بخط يده عن حياته وهو في أخريات عمره.. لقد كتب - كما سجل ذلك ابن خلدون في تاريخه:

أن أيام السرور التي صفت لي هي يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من شهر كذا من سنة كذا! إلخ.

وأحصى ابن خلدون أيام السرور هذه في حياته فوجدها 14 يوما فقط لا تزيد، وعلق على ذلك قائلاً: فأعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها لأوليائها، وبخلها بكال الأحوال. فهذا الخليفة حلف السعود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا وفى الصعود، ملكها خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام، فلم تَصْفُ له إلا أربعة عشر يوما.. فسبحان ذي العزة القائمة.. والمملكة الدائمة...لا إله إلا هو!

وانظر أيضاً إلى ذلك الشاعر الألماني العظيم «جوته» الذي عاش بين عامي 1749 و1832، واستمتع بكل صور المجد والنجاح والثراء والشهرة والتكريم والسعادة الشخصية والحب، حتى لقد انطوت صفحة حياته وهو يحظى بحب فتاة صغيرة جميلة، فتنت به وأخلصت له الحب وحنت عليه وهدهدت مشاعره حتى الرمق الأخير من عمره.. انظر إليه ماذا قال لصديقه الناقد الأدبي الشاب إكرمان الذي اقترب منه في سنواته الأخيرة وكتب سيرته الذاتية؟ لقد قال له: «لقد عُدِدْتُ

دائما من المحظوظين، ولستَ في الحقيقة أشكو من حياتي، لكنه من الحق أيضا أن أقرر أنني لم ألق فيها سوى التعب والهم، وأستطيع أن أقول في النهاية: إنني خلال خمس وسبعين سنة- عمره وقت هذا الحديث - لم أستمتع بالراحة التامة شهرا واحدا، وأن حياتي كانت دائما دفعا مستمرا للحجر إلى قمة الجبل، فما أن يصل إلى القمة حتى تدحرجه الآلهة إلى السفح وترغمني على إعادة دفعه لأعلى من جديد كما في أسطورة سيزيف الإغريقية».

ماذا نقول حين نقرأ ذلك.. أو حين نسمع كلاما مشابها له من أي إنسان آخر يعتبر بحق من المحظوظين و «حلفاء السعود»؟!

هل نقول ما قاله ابن خلدون: فأعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها لأوليائها.. وبخلها بكال الأحوال؟

أم نقول: فانظر أيها العاقل إلى ميل الإنسان الغريزي للرثاء لنفسه واستصغاره الدائم لعطايا الحياة له، وتعذيبه لنفسه بحلم أبدي في «مثال» لا وجود له إلا في خيال الحالمين بالسعادة المطلقة؟

إنني شخصيا من أنصار هذه العبارة الأخيرة.. ومن أنصار المبدأ الإيماني العظيم «وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ» - صدق الله العظيم

.. ومن المؤمنين بأن لكل إنسان في الوجود من سعادته الخاصة ما ينبغي له أن يرضيه، ومن همه بنفسه ما يدعو ربه لأن يتم نعمته عليه فيكشفه عنه أو يعينه على قبوله والعيش به باعتباره من الخسائر الإنسانية الضرورية التي لا يخلو منها كشف الحساب الختامي لرحلة أي إنسان في الوجود مع الحياة.

كما أنني أيضا من أنصار مبدأ «السعادة الخفية» التي لا يدرك كنهها إلا أصحاب القلوب الحكيمة والبصائر السليمة والتي عبر عنها ذلك القطب الصوفي الكبير الذي سيل: كيف يحتمل هو ومريدوه حياتهم المتقشفة الجافة الخالية من كل متع الحياة؟.. فأجاب سائله: «لو علم الحكام ما نحن فيه من نعيم لجالدونا عليه بالسيوف».. أي لقاتلونا بالسيوف ليأخذوا منا بعضه ويستمتعوا به مثلنا!

كما أنني أيضا من أنصار الحكمة الهندية القديمة التي تقول: كل شيء مكروه.. سيصبح مألوفا لنا بعد حين!

وتعجبني كثيرا تلك القصة الأسبانيةٍ الشعبية التي تحكي عن رجل كان دائم السخط لأنه لا يملك حذاء، إلى أن رأى رجلاً بلا قدمين فرضي عن حفائه لأول مرة، وكف عن الشكوى والسخط منذ ذلك الحين..

فهل تشاركني هذا الاختيار يا صديقي؟.. وبماذا سوف تجيبني إذا سألتك هذا السؤال البسيط الذي بدأت به حديثي إليك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأمل الأخير

لم أعرف لهذا الميل الشخصي عندي سببا حتى الآن!

فأنا - ومنذ فجر شبابي - أميل للاقتراب من المبتدئين والمغمورين وأصحاب الأدوار الهامشية في الحياة، أكثر مما أميل للاقتراب من الكبار والنجوم وأصحاب الأدوار الرئيسية في مجتمعهم.

فإذا نزلت مثلاً بفندق كبير بمدينة ساحلية أو في الجنوب، اهتممتُ بالتعرف علىٍ صغار العاملين فيه بأكثر مما أهتم بالتعرف على مديره الخطير. وإذا حضرت حفلاً للموسيقى الكلاسيك في مصر أو في الخارج وجدت عيني تتسلل بعد الإعجاب المبدئي بالمايسترو الكبير الذي تتركز حوله الأضواء، لتنسحب منه وتستقر على عازفي الآلات الهامشية في الصفوف الخلفية، وكلما تراجعت أهمية الآلة التي يعزفها العازف، كلما ازداد اهتمامي بتأمله ورثائي الخفي له لانحسار الضوء عنه، وإذا شاهدت في التليفزيون فاصلاً غنائيا وجدتني لا إراديا أتأمل باهتمام أفراد الكورس الذين يتوارون خلف أفراد الفرقة الموسيقية ويؤدون دورهم في الظل، وأتمثل مشاعرهم وهم يجدون الأضواء تتغافل عنهم دائما وتتركز على النجم الساطع في مقدمة المسرح!

وقد انسحب ميلي هذا أيضا إلى علاقاتي الاجتماعية، فوجدتُني لا أسعى غالبا إلى صداقة أحد من الكبار والمهمين، ولا أحفل بالاقتراب من الشخصيات البارزة في الحياة العامة، ولقد عرفت بعضهم وهم في مرحلة الكفاح وإثبات الذات.. فما أن حققوا صعودهم وأصبحوا نجوما ساطعة في السياسة والحكم والإدارة.. حتى وجدت طبعي يغلبني - وكل إنسان محكوم بسجن طبعه كما يقول توفيق الحكيم ووجدتني لا أتصل بهم إلا إذا اتصلوا بي، ولا أسعى لزيارتهم في مكاتبهم كما كنت أفعل وهم في مرحلة الكفاح والتطلع للمستقبل الواعد.

ولابد أن هذا الميل نفسه كان هو المسئول عن صداقتي الشخصية في إحدى مراحل حياتي لواحد أو اثنين من العاملين في المجال الفني ممن يطلقون عليهم لقب «الكومبارس»، فلقد عرفتهم خلال سهراتي الليلية في مرحلة الشباب، ووجدتني مهتما بأمرهم وشغوفا باكتشاف عالمهم الخاص، ومشاركتهم اهتماماتهم ومشكلاتهم وأحلامهم العاجزة لأنفسهم بالنجاح الذي لا يجيء أبدا.

وفى هذه الفترة من حياتي كنت أقضي سهراتي في مقهى الفيشاوي، أو في مقهى سوق الحميدية، حيث كانت تتجمع شلة كبيرة من هؤلاء المغمورين يتسامرون ويتبادلون الأخبار والتعليقات على ما يجري في الوسط الفني، ويحلمون دائما بشيء عزيز يمثل بالنسبة لهم الحل السحري لبطالتهم، وديونهم وإحباطهم، هو «الأوردر».

و «الأوردر» هو الكلمة الإنجليزية التي تعني أمر العمل، وحين يتلقاه أحدهم من أحد مساعدي المخرجين يبتهج بقرب انفراج الأزمة، ويتهلل استعدادا للعمل القريب، ويدعو الله أن يكون لأيام عديدة وليس ليوم واحد أو يومين. ولأن من

عادتي أيضا أن أشارك أصدقائى اهتماماتهم وهمومهم، فلقد أصبح لكلمة «الأوردر» هذه قيمة كبيرة عندي مع أني لا أعمل بالمجال الفني، لأنها تعني بالنسبة لي ابتهاج الأصدقاء، وانتعاش أحوالهم المؤقت قبل أن يرجعوا مرة أخرى للبطالة والمعاناة وانتظار الفرج فضحكتُ مع هؤلاء الأصدقاء مبتهجا حين يجيء «الأوردر»، وتجهمتُ معهم مكتئبا حين يطول انتظاره، وشاركتهم التندر على متعهد بوفيه نقابتهم الأمي الذي كانوا يستدينون منه حين كان يتسلم لأحدهم هذا «الأوردر» في غيابه، فيستقبله بابتهاج حين يجيء ويبشره بالخبر السعيد قائلا له: مبروك جالك «كوردر»!

ولأن المرحلة كلها كانت مرحلة انغلاق اقتصادي تام.. وليست هناك محطات تليفزيونية عربية، ولا محطات فضائية، ولا شركات إنتاج كثيرة، فلقد كان الرزق شحيحا للغاية، ولم يكن هناك من مصدر رزق لهؤلاء المغمورين إلا ما يتلقونه من أوامر العمل هذه من بعض مخرجي السينما والتليفزيون والإذاعة مقابل جنيهات قليلة، ولهذا فقد كان «المخرج» بالنسبة إليهم كائنا أسطوريا رهيبا يملك أن يفتح لأحدهم أبواب السعادة والرزق، ويملك أيضا أن يغلقها دونه. ولأن المغمورين كثيرون، والطلب على العمل قليل، فلقد كان هؤلاء المغمورون يتنافسون في طلب ود هؤلاء المخرجين ومجاملتهم.. بل ونفاقهم أيضا بلا حرج، ويعترفون لأنفسهم ولغيرهم بهذا النفاق بلا أية محاولة للادعاء أو التظاهر، ويقرون بأنهم ينافقون هؤلاء الحرجين بكل الحيل المشروعة لكي يحصلوا من ورائهم على رزقهم الشحيح. وكان هذا هو أكثر ما يعجبني فيهم.. إذ كنت أقارب «نفاقهم» غير الضار الذي اضطرتهم إليه قسوة الحياة، بنفاق عير المضطرين إليه من عباقرة النفاق السياسي والإداري، طلبا للمزيد من الصعود والترقي..

أو طلبا للبقاء في المناصب العليا، وأميل لالتماس العذر لهؤلاء المغمورين النساء في نفاقهم.. ولا أجد للعباقرة أي عذر في نفاقهم الممجوح والضار سياسيًا وإداريا وعلى كل المستويات، فالنفاق يفسد القيادات ويهز ميزان العدل في أيديهم ويخل بمبدأ تكافؤ الفرص.

وبعض القيادات الوزارية والإدارية، حتى لو صمدت لأمواج النفاق العاتية في البداية.. فإنها قد لا تصمد له حتى النهاية.. لأن النفس تميل بطبعها لسماع ما يرضيها حتى ولو تشككت في صدقه.

ولأن أحد السياسيين القدامى قد قال: أمير مقاطعته في العصور الوسطى متحديا رفاقه من الحاشية: «أسطيع أن أحول هذا المأفون إلى مجنون خلال بضعة أيام.. بالنفاق». لهذا فقد تسامحتُ مع نفاق هؤلاء البؤساء، وتعاطفت وضحكت لبعض فنون نفاقهم المبتكرة، ولم أفعل نفس الشيء مع النفاق الآخر القاتل للتواضع والعدل والمساواة بين البشر.

وكنت بطبيعتي في حب تأمل الأشياء والأشخاص أستحث هؤلاء المغمورين إذا جلست إليهم ليرووا لي عن أساليب «المجاملة» التي يتبعونها مع المخرجين، فيقولون لي إنها تشمل التطوع لتقديم كل أنواع الخدمات الشخصية بغير أن

يطلبها منهم المخرج.. لأن للمتطوع فضلا يزيد عن فضل الملبِّي للطلب أو الرجاء، وقد تفوق أحدهم في قضاء هذه المصالح الشخصية فأصبح اسمه لديهم في الوسط الفني كله «عبد الحميد مشاوير»، لنشاطه في قضاء المشاوير الخاصة بالمخرجين والمنتجين.. وتفوق آخر في أعمال السكرتارية المجانية لبعض المنتجين، فأصبح اسمه المعروف به بينهم هو «حسن سكرتارية»، وكل ذلك إلى جانب الإشادة المستمرة بعبقرية المخرج الفريدة وموهبته الفذة التي أثرت - عن غير قصد - على طبقة الأوزون في السموات العلا! إلى جانب مجاملة المخرج في كل مناسباته الاجتماعية والعائلية والمناسبات السعيدة والمناسبات الحزينة.

ومع طول العشرة ألفتُ حيل هذه المجاملات منهم.. واعتبرتها من ضرورات العمل بالنسبة إليهم، لكنني وجدت نفسي ذات ليلة مبهورا بحيلة مبتكرة من هذه الحيل لم أسمع بها من قبل.. ولم تصادفني حيلة مثلها في كل ما قرأت من قصص تشيكوف وجوجول ودستويفسكي عن النفاق الإداري الذي كان شائعا في روسيا القديمة في زمنهم. فلقد كنت جالسا في مقهى سوق الحميدية ذات ليلة مع صديق من هؤلاء المغمورين، فجاء إلينا زميل له في المهنة لا أعرفه وجلس معنا، ثم راح يشكو لصديقي من إحباطه ويأسه من الفرج، لأن «أولاد الأفاعي» من المغمورين الآخرين لم يدعوا له أية فرصة «للاستفادة» من مناسبة وفاة والدة المخرج فلان التي انتقلت إلى رحمة ربها صباح نفس اليوم!

واجتذب الحديث اهتمامي بشدة، فأصغيت إليه بكل جوارحي، وسألت صديقي عما يقصده ب- «الاستفادة» من مثل هذه المناسبة الحزينة! فابتسم ابتسامة العارف ببواطن الأمور وطلب من زميله أن يوضح لي مقصده، فروى الرجل أنه قد علم بوفاة والدة المخرج في الصباح، فتوجه على الفور إلى السرادق الذي ستتشيع منه إلى مثواها الأخير، وقدم للمخرج عزاءه الحار وهو دامع العين، وحاول الوقوف إلى جواره، لكن أكتاف المنافسين أبعدته عنه بعنف، فتعلق بالأمل في أن يشارك في حمل الجثمان عند خروجه من المسجد إلى العربة التي ستنقله إلى المستقر الأخير، لكن المنافسين لم يدعوا له أيضا أية فرصة للاقتراب منه، وكلما كافح لخلق ثغرة في زحام أجسامهم حوله، دفعه «المجاملون» الأشداء من زملائه بعيدا عنه، ولم يفقد الأمل بالرغم من ذلك، فما زالت هناك فرصة أخرى حين تصل العربة للمدافن، ويتم إنزال الجثمان هناك، فهرول وراء العربة إلى المدافن.. وترقب فرصته بانتباه شديد.. لكن.. قاتل الله أولاد الأفاعي، فلقد أحاطوا بالجثمان مرة أخرى في حلقة محكمة ولم يتيحوا له أية فرصة لأن يراه المخرج وهو يشارك في حمله باكيا، فيعرف مدى إخلاصه له، ويتذكره وهو يصدر أوامر العمل في الفيلم الجديد، فماذا يفعل وسط هؤلاء الأبالسة!

وعند هذا الحد قصته توقف عن رواية القصة، وقال لصديقه إنه لم يبق له بعد فشل كل محاولاته السابقة إلا أن يضرب ضربته الأخيرة ويستخدم مع المخرج «حكاية النور» كآخر أمل له قبل ضياع الفرصة.

وقبل أن يواصل حكايته، سألته مندهشا: ما هي أولاً حكاية النور هذه؟ فأومأ إليّ صديقي المغمور بيده طالبا مني الصبر لأعرفها من سياق الحديث وهو يبتسم

ابتسامة من يعرف سرها ويتوقع أن يدهشني!

وواصل الرجل حديثه، فقال إنه حين يئس من كل أمل في حمل الجثمان رتب في ذهنه أن ينزل وراءه إلى مستقره الأخير ويبقى فيه إلى أن تنتهي كل المراسم الحزينة، ثم يخرج إلى المخرج منفعلاً ومتأثرا ويقول له حكاية النور.. وبغير أن يتوقف ليشرحها قال إنه قد فعل ما رتب له بدقة ورجع من حيث كان، وتقدم إلى المخرج منفعلا، وهمَّ بأن ينطق ب- «الحكاية»، فإذا به يجد زميلا له كانت خطواته إلى المخرج أسرع من خطوته.. ولسانه أسبق من لسانه، يقول له بصوت أكثر انفعالاً واهتياجا:

- رأيته بعيني والله يا بيه.. رأيت النور يحيط بالمرحومة في قبرها ويحول ظلامه إلى نهار!

فوقف الرجل مبهوتا بعد ضياع الأمل الأخير، وعقد الإحباط لسانه فلم يستطع - كما قال - حتى أن يستفيد من نفاق زميله فيؤيد زعمه للمخرج، ويدعم شهادته بأن السيدة والدته من الأطهار الأبرار الذين يحيل الله سبحانه وتعالى قبورهم إلى نعيم.

واختتم الرجل حديثه متسائلاً في مرارة:

- كيف نستطيع التقاط أرزاقنا وسط هؤلاء الأبالسة؟!

فإن كنت قد استمتعت في حياتي بقصة قرأتها أو سمعتها فإني لم أستمتع بقصة كما استمتعت بهذه القصة وتعجبت منها وتأملتُها طويلا.

ولسنوات طويلة ظلت أحداث هذه القصة التي يعجز خيال أبرع المؤلفين عن ابتكارها حية في مخيلتي، أتذكرها في مواقف عديدة وأسترجع أحداثها.. وأعجب لمبتكرها المبدع الخلاق في فن النفاق.

ولقد كان أكثر ما أثار دهشتي هو أنها قصة مألوفة لم تثر دهشة صديقي المغمور حين سمعها معي، وفهمت من ذلك أنها حيلة مجربة تم استخدامها من قبل مع بعض المخرجين وحققت نتائجها المرجوة، لكن الجديد هذه المرة هو أن الزميل الذي وضع كل أمله فيها، قد صدم بأن هناك من سبقه إليها بلحظات فأفسد عليه خطته.. لعنة الله عليه.

أما هذا الصديق المغمور الذي شاركته سماع هذه الحكاية العجيبة فقد انتقل إلى جوار ربه منذ سنوات يرحمه الله، وأما هذا الزميل «المحسور» فما زلتُ أفتش عنه كلما شاهدت عملاً من الأعمال التليفزيونية والسينمائية لأطمئن إلى أنه يكسب رزقه ويواصل حياته في أمان. وكلما صادفته في أحد هذه الأفلام تأملته باهتمام شديد وتساءلت: هل ما زال يستخدم حكاية النور هذه في تسيير أموره؟ أم أن فنون النفاق قد تجاوزت هذه الحيل القديمة، وتحولت إلى فنون أشد تركيبا وتعقيدا.

ولأني انقطعت للأسف عن صحبة هؤلاء المغمورين منذ سنوات طويلة، فلستَ أستطيع الإجابة على هذا السؤال، لكني أستطيع من ناحية أخرى أن أسجل - بانبهار - مدى التطور التكنولوجي الخطير الذي ارتقت إليه فنون النفاق في عالم الإدارة والسياسة، حتى أصبحت «حكاية النور» هذه - إلى جوارها - حيلة بدائية من العصر الحجري.

ولله الأمر من قبل.. ومن بعد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هـات «شلـن»

كنت مسافر من القاهرة إلى مدينتي الصغيرة بالوجه البحرى في زيارة عائلية،
فتوقفت أمام استراحة من استراحات الطريق لفنجان من القهوة..

جلست في حديقة الاستراحة أتأمل المكان من حولي وأرشف القهوة في هدوء لأستعين بها على تجديد نشاطي ومواصلة الرحلة، فإذ بي أرى أمامي طفلا صغيرا يرتدي «ترينج سوت» رثًا.. ينظر إليّ من فتحة في سياج الحديقة ويحدثني بها لم أميزه من كلمات. كرر حديثه المبهم إليَ.. فطلبت منه أن يرفع صوته قليلاً لأسمعه، وسألته عما يريد، فقال بصوت أعلى نسبيًّا: أقول لك.. هات «شلِن»!

ضحكت بالرغم مني وتأملت مظهره البسيط ومطلبه المتواضع، وتساءلتُ: متى سمعت هذه الكلمة المنقرضة آخر مرة «شلن»؟!

إن أمثاله في القاهرة والمدن الكبرى يطلبون جنيها كاملاً، وقد لا يرضون بأقل من نصفه، فلماذا تتواضع الأحلام كلما ازداد الحال تواضعا وبؤسا؟!.. أشرت إليه أن يقترب، وتحدثت إليه للحظات.. ثم انصرف جاريا وأنا أرقب تعبيرات وجهه المترددة بين الشكر.. والشك، إلى أن اختفى وراء السياج، وأنا ما زلت أفكر في هذه المفارقة الشائعة من مفارقات الحياة.. نعم، لماذا تتواضع الأحلام أكثر كلما ازداد الحال صعوبة وجفافا، بدلاً من أن يحدث العكس كما يقضي بذلك المنطق؟

أنهيتُ قهوتي في سلام وعدتُ لمواصلة الرحلة، فإذا بوجه هذا الطفل المتردد يعيد إلى ذاكرتي ذكرى بعيدة كل البعد عن هذا الموقف.

لكنها بالرغم من ذلك تعكس نفس المفارقة..

ففي الستينيات كنت محررا بقسم التحقيقات الصحفية ب- «الأهرام»، وأقوم إلى جوار عملي به بكتابة بعض التحقيقات الرياضية في ملحق الرياضة مع شيخ النقاد الرياضيين العرب المرحوم الأستاذ نجيب المستكاوي، وكان صديقي فنان الكاريكاتير الكبير المرحوم محمد عبد المنعم رخا قد عُيّن سكرتيرا عاما لنادي الترسانة، فوجدتُ نفسي - وقد كنت من قبلها أقضي معه سهراتي كل ليلة - أتردد عليه في النادي كل يوم وأعايش شواغله وهمومه ومشاكله الجديدة.

وفي كل مساء تجتمع شلة الأصدقاء التي كنت ألازمها - ذلك الوقت - في حديقة النادي، فلا نغادرها إلا وهو يغلق أبوابه عند منتصف الليل، وقد نستكمل السهرة في بيت المرحوم رخا القريب بعد ذلك. وفي هذه الجلسات عرفت نجم الترسانة الكبير وقتها حسن الشاذلي واقتربت منه وصادقته، وعرفت أيضا توءمه وشريكه في الثنائي الخطير الذي كانا يشكلانه في الملعب، مصطفى رياض، وقد كان كل منهما لا يذكر اسمه إلا مقرونا بالآخر، ويرتبط مصير أية مباراة يؤديانها بهما، فتفوز الترسانة إذا أجادا، وتنهزم إذا تخلى عنهما التوفيق، كما كانا يتنافسان كل موسم على لقب هداف الدوري، ويفوز به غالبا حسن الشاذلي برصيد من الأهداف يبدو إلى جواره رصيد هداف الدوري الآن شديد التواضع، فلقد نال اللقب

مرة بإحرازه 28 هدفا في موسم واحد، ومرة أخرى ب- 25 هدفا.. ولم تقل أهدافه أبدا في أي موسم عن 20 هدفا!

وقد نشرت وقتها تحقيقا طريفا عن حسن الشاذلي في «الأهرام» قلت فيه: إنه وتوءمه يهزمان الفرق الأخرى «بالنصب على الطريقة الأمريكية»، فقد كان مصطفى رياض ماهرا في المراوغة ويجيد الالتحام بالمدافعين فلا يجدون مفرا من عرقلته، فإذا مضى الوقت دون أن ينجحا في التسجيل تسلم رياض الكرة ونفذ خطته المدبرة والتحم بالمدافعين قرب منطقة الجزاء ثم ارتمى على الأرض، ويأتي حسن الشاذلي من الخلف صائحا في الخصوم: حرام عليكم حتموتوا الواد!..

ويصفر الحكم.. ويضع الشاذلي الكرة على الأرض ويسدد «الفاول»، فتنطلق الكرة كقذيفة المدفع في مرمى الخصوم!

وكان الشاذلي يكاد يسجل هدفا من كل كرة ثابتة على حدود منطقة الجزاء، مهما كان دفاع المدافعين، وظهر التحقيق في «الأهرام» وسعد به الشاذلي، وضحك لعبارة «النصب على الطريقة الأمريكية» هذه كثيرا، وصارحني بأنهما لا يلجآن إلى هذه الطريقة إلا إذا عجزا عن التسجيل بالطريقة الطبيعية!

ثم ذهبت ذات يوم إلى النادي، فوجدت المرحوم رخا وشلة الأصدقاء من أعضاء مجلس الإدارة والنادي مهمومين بأمر يشغل خاطرهم، وتساءلت عما حدث، فانتحى بي أحدهم وروى لي أن الشاذلي ورياض قد قارب عقدهما على الانتهاء وبدأ النادي يفاوضهما لتجديده، فإذا بهما يطلبان من النادي مبلغا باهظا لكل منهما مقابل التوقيع، إلى جانب زيادة بسيطة في المرتب الشهري، ومع أنه لم يكن مسموحا وقتها بانتقال اللاعبين بين الأندية حتى نهاية العمر إلا بموافقة النادي الأصلي، لكن الأمر مثَّل مشكلة كبيرة للنادي، لأنه لو لم يلب مطالب اللاعبين أو يتوصل معها إلى - وسط، فسوف يمتنعان عن اللعب أو يلعبان بلا روح، وقد فشلت كل الجهود معهما لأن يتنازلا عن بعض غلوائهما ويقبلا بمبلغ معقول، ولم يعد هناك مفر من الصدام معهما!

واستمعت إلى ما يقوله لي عضو النادي باهتمام شديد، وشاركته همه بهذه الأزمة الطارِئة، ثم تساءلت عن المبلغ الباهظ الذي يطلبه اللاعبان، فزفر قبل أن يجيبني قائلاً في مرارة: خمسمائة جنيه لكل منهما يا سيدي.. تصور؟!

ودار الحديث بعد ذلك طوال الجلسة عن هذا المطلب «العجيب» وقال أكثر من عضو: ماذا جرى لعقل هذين اللاعبين؟.. هل أدارت الشهرة رأسيهما؟.. هل تناسيا ما قدمه لهما النادي؟.. هل.. وهل.. إلخ.

وانصرفت مهموما بهذه الأزمة التي تشغل خواطر أصدقائي، وفي اليوم التالي كتبتُ خبرا عن مطالب النجمين وقدمته للمرحوم المستكاوي، فصدرت الصفحة الرياضية «بالأهرام» صباح الغد، وفي صدرها عنوان مثير يقول: الشاذلي ورياض يخرجان على الترسانة بمطالب لا معقولة!!

وللصدفة البحتة فقد كان اللاعبان سيشاركان في نفس اليوم في مباراة بملعب الترسانة، وذهبت إلى النادي لمشاهدتهما، فاستقبلني رئيس النادي وأعضاء مجلس الإدارة بحفاوة شديدة، لأنني قد أسهمت بنشر هذا الخبر في مساندة موقف النادي خلال مفاوضاته مع اللاعبين، ولأنهما قد «اضطربا» بشدة لإذاعة هذا السر المكتوم الذي قد يثير عليهما «حفيظة» باقي اللاعبين، ومن المحتمل الآن أن يقبلا بحل وسط.

وبدأت المباراة، فكررت أحداثها طبيعة الدنيا الغادرة وتقلباتها الغريبة، فبعد قليل من بدايتها سجل الشاذلي بمساعدة رياض هدفا في مرمى الخصوم، فانفجر جمهور الترسانة في المدرجات يغني لهما ويشيد بهما، ثم تغيرت الأحوال بعد ذلك فسجل الخصوم هدفا، فصمت الجمهور وران الصمت الثقيل على الملعب، ثم تفوق الخصوم وأحرزوا هدفا آخر، وبدا أن المباراة قد ضاعت من الترسانة، فإذا بنفس هذا الجمهور الذي كان يغني للشاذلي ورياض منذ حين، ينفجر فيها صابا عليهما لعناته وسبابه.. وتنتهي المباراة فيحاصر الجمهور الفريق في الملعب يريد الفتك بنجميه المحبوبين وصائحهم يصيح في هتاف استنكاري جماعي رهيب: خمسمية.. يا خمسمية؟!.. ثم لا يغادر الجمهور الملعب إلا بعد وقت عصيب، ووجدت نفسي من حيث لا أريد طرفا في أزمة حادة بين النادي وجمهوره وبين اللاعبين الكبيرين، وعتب عليّ الشاذلي نشري لهذا الخبر لأن نشر «الرقم "كبير» الذي طلبه هو ورياض قد أثار مشاعر الجماهير المحرومة ضدهما، فانقلبت عليهما بعد أن كانت تغني لهما!

وحاولت بقدر جهدي تطييب خاطره، والاعتذار له عن نشر الخبر بضرورات المهنة التي لم تكن تسمح لي بتجاهل مثل هذا الخبر الصحيح، وأكدت له أنه يستطيع بإجادته اللعب في مباراة واحدة أن يستعيد حب الجمهور له. وغناءه.. وأناشيده..

ومرت الأزمة بسلام.. وشغلتني مشاغل الحياة بعد ذلك عن التردد على النادي، ثم تفرغت للتحقيقات الصحفية وانتهت هذه الحقبة الرياضية من حياتي، ولم أعرف هل «رضخ» النادي لمطالب لاعبيه الكبيرين؟ أم أن ما حدث قد هز إصرارهما على تقاضى هذا المبلغ «الباهظ» فقبلا بمبلغ أقل منه؟!

لكني أعترف لك الآن أنني كثيرا ما أستعيد فصول هذه القصة في ذاكرتي كلما قرأت عن مطالب لاعبي العصر الحالي المادية من أنديتهم، أو قرأت عن المبالغ «الباهظة» بحق التي يتعاقدون بها معها.. وأنني كلما تذكرتها شعرت بشيء من الخجل من نفسي، وأحسستُ بأنني مدين باعتذار متأخر لهذين اللاعبين الموهوبين اللذين أثرت ضدهما - من حيث لا أقصد - مشاعر جمهور ناديهما بنشري لهذا الخبر!

صحيح أن مبلغ الخمسمائة جنيه وقتها كان يكفي لأن يحصل من يملكه على شقة بالإيجار في مصر الجديدة، وأنه أيضا كان يكفي غالبا لتكاليف زواج شاب، وأن مرتب رئيس الجمهورية وقتها لم يكن يزيد على هذا المبلغ جنيها واحدا، لكنه

يظل بالرغم من كل ذلك، وبالمقارنة بما أصبح عليه الحال الآن في بورصة اللاعبين، مثل هذا «الشلن» الذي سألني إياه ذلك الطفل الصغير في استراحة الطريق.

كما يظل أيضا انعكاسا لروح العصر كله وقتها، التي كانت فيه المطالب بسيطة، والأحلام متواضعة، في حين تسود العصر الآن كله روح كروح شاعر العرب المتنبي حين يقول:

إِذا غامَرتَ في شَرَفٍ مَرومٍ فَلا تَقنَع بِما دونَ النُجومِ

فَطَعمُ المَوتِ في أَمرٍ صَغيرٍ كَطَعمِ المَوتِ في أَمرٍ عَظيمِ

كما تسوده أيضا في بعض جوانبه روح ذلك المثل الإنجليزي القديم الذي يقول: إذا ضربت فأوجع.. فإن الملامة واحدة!!

مع أنه يستحيل عمليا وإنسانيا أن تكون الملامة واحدة لمن يضربك بوردة، ولمن يهوى فوق رأسك بمطرقة ثقيلة، لكنه هكذا يبرر الأمر دائما لنفسه من يريد أن «يفلسف» القسوة والتجرد من دوافع الرفق والعطف الإنساني.

كما تسوده أيضا روح كلمة ذلك الفيلسوف الأمريكي المعاصر الذي يقول لك: إنك إذا طلبت من الدنيا القليل فلن تحصل على الكثير، وإن طلبت منها الكثير فإنك إن لم تحصل عليه فلسوف تحصل على الأقل - على ما هو أكثر من القليل.. وإن كان هذا الفيلسوف «البراجماتي» لا يحدثنا كذلك عن الإحباط المرير الذي يعانيه من يطلب الكثير فلا ينال إلا ما هو أكثر من القليل، ولا يحدثنا عن حلة الرضا عن النفس التي يشعر بها من يجعل أهدافه في متناول يديه ولا يطلب إلا ما ترشحه له قدراته وظروفه وإمكانياته.

لكنها روح العصر لدى الكثيرين للأسف، وهي الروح التي صورها الكاتب المسرحي الأمريكي آرثر ميللر في مسرحيته «الثمن» وقال فيها: «إن الأمر يبدأ دائما بأن تطلب لنفسك الكثير، فتقضي العمر لاهثا وراءه في سباق متصل كسباق الفئران المذعورة إلى أهداف متحركة، تبتعد عنها كلما اقتربت منها، فلا أنت قد حققت ما فقدت روحك وسلامك النفسي من أجل الوصول إليه.. ولا أنت قد قنعت بما حققت، أو تواضعت بأحلامك لتتناسب مع قدراتك وتستريح»..

ولعلي أتخيل الآن ماذا عسى جمهور الكرة أن يقول في هذه الأيام إذا غضب على لاعب أرهق ناديه بمطالبه الباهظة حقا.. أتراه يصيح مستنكرا كما صاح في وجه الشاذلي ورياض: خمسمية يا حرامية؟ أم أن الأكثر ملاءمة لروح العصر الآن هو أن يهتف قائلاً: نص مليون.. يا مجنون؟

ولعلي أيضا لو خيرت بين الحالين.. وبين روح تلك الأيام وروحها الآن، لاخترت الأحلام البسيطة، والسعادة الحقيقية ببلوغ الأهداف قريبة المنال، ولفضَّلت ألا تتجاوز مطالبي من الحياة مثل هذا «الشلن» المتواضع، إذا كان الفوز به متاحا بلا خسائر معنوية أو أخلاقية، وبغير أن يفقد الإنسان قدرته على السعادة وتذوق طعم الأشياء.. فهل تشاركني في ذلك.. أم أن لك رأيا آخر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أرجوك.. أعطِني عمرك

كم «عمراً» يحتاج إليه الإنسان لكي يتعلم من أخطائه وتجاربه.. و«يفهم» الحياة حق فهمها ويُحسن التعامل معها ومع البشر؟

في تقديري أنه يحتاج إلى «عمرين» على الأقل أو حياتين، يتخط في الأولى منها في التجربة والخطأ.. ويدفع ثمن أخطائه وعثراته فيفجع على سبيل المثال في صداقة صديق لم يكن يستحق صداقته، في عدم وفاء شريك لم يحسن هو اختياره، ويكتشف سوء تقديره أو اختياره في هذه المسألة أو تلك، ويجرب هذا الطريق فيكتشف أنه لم خلق له من الأصل، وإنها لطريق آخر في الحياة.. ثم تنتهي «المرحلة الأولى» بخيرها وشرها في موعدها المقدور.. ويبدأ من جديد رحلة «الحياة الحقيقية» الخالية من الأخطاء والعثرات وسوء التقدير وسوء الاختيار، فلا يكرر خطأ وقع فيه في حياته الأولى، ولا تفلت منه هفوة لسان ندم عليها أو دفع ثمنها غاليا في «جاهليته» السابقة، ولا يفقد صديقا فقده من قبل بحماقته وقلة خبرته السابقة بالنفس البشرية، ولا يستثير على نفسه عداء الآخرين باندفاعاته القديمة ورعونته الماضية، ولا يمضي في طريق لم تكن ترشحه له مؤهلاته وقدراته من الأصل.. ولا يشقى لبلوغ هدف أدرك في «حياته السابقة» أنه لا يستحق أن يشقى الإنسان للوصول إليه على حساب أهداف أخرى أكثر قيمة وأكثر قدرة على تحقيق سعادته الحقيقية.

ويمضي في الحياة مسلحا بمعرفة ثمينة بنفسه وخبرة كبيرة بالحياة والبشر من حوله.. فيحيا سعيدا آمنا من الأذى والخداع.. والأخطاء والعثرات.. تحيط برأسه هالة من الحكمة وحسن الإدراك والفهم الصحيح لكل الأشياء!

أمنية مستحيلة؟

هي كذلك بالطبع.. لهذا فلقد حلم بها كثيرون من العقلاء والحكماء وتمنوها لأنفسهم، فكتب الأديب الإنجليزي الشهير «د. ه- لورانس» ذات يوم يقول: ليت للإنسان حياتين.. الأولى يرتكب فيها الأخطاء والحماقات، والثانية يتعلم فيها من أخطائه وتجاربه!

وقال الأديب الأسباني المغمور في رواية «الشطار» للأديب المغربي محمد شكري: حين يتقدم بنا العمر فإننا نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد لكي نتعلم من أخطائنا.. ولأن الإنسان الحقيقي هو الذي يعرف كيف ينتهي وليس كيف يبدأ!

وقال الأديب الأيرلندي الكبير برنارد شو: إنه من المؤسف أننا حين نبلغ مرحلة الحكمة وتتحقق لنا السيادة على أنفسنا والسيطرة على أهوائنا، فإن رحلة العمر تكون قد آذنت بالمغيب، ولم يتبق لنا الكثير لكي نستفيد فيه بالحكمة التي اكتسبناها بعد التخبط الطويل في التجربة والخطأ!

وكثيرا ما نقرأ أو نسمع أحد البارزين في بعض مجالات الحياة يقول: لو رجعت الأيام لما فعلت كذا وكذا.. ولفعلت كذا وكذا..

لكن الأيام لا ترجع أبدا.. ومياه النهر لا تعود للأسف إلى منابعها وإنها تمضي إلى مصبها في طريق محتوم.

ولم يبق لنا إلا أن نحاول قدر الجهد والطاقة أن نتعلم من أخطائنا وتخبُّطنا في التجربة والجهل ببعض حقائق الحياة، ونستفيد من تجارب الآخرين ودروس حياتهم، فكأنما نُضيف أعمارهم إلى أعمارنا وخبراتهم إلى خبراتنا، ونستعين بعقولهم مع عقولنا على قيادة سفينة حياتنا في مياه النهر بغير أن تصطدم بالجنادل والصخور، فلا نكرر خطأ وقعنا فيه مرتين.. ولا ننخدع بمن سبق له خداعنا من قبل.

ونؤمن بالحكمة القديمة التي تقول: «إذا خدعني أحد فليسامحه الله أما إذا خدعني مرة أخرى فليسامحني أنا الله؟».

ونستفيد كذلك من تجارب العمر وتجارب الآخرين في اختيار الطريق الصحيح لنا في الحياة، وفي التفرقة بين ما نستطيع إدراكه وينبغي لنا السعي إليه بكل طاقاتنا، وبين ما لا نستطيع بلوغه مهما حاولنا ذلك، فلا نهدر الجهد والطاقة في نطح صخوره العاتية، وأن نعرف كيف نميز بين أهداف الحياة الجديرة حقا بأن نشقى لبلوغها والأهداف الأخرى التي لا تستحق في نظر العقلاء الشقاء من أجلها وإن أغرت غيرنا بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ فترة زارني بمكتبي رجل طلب لقائي ليبثني همومه، فروى لي أنه تزوج من زميلته التي أحبها خلال مرحلة الدراسة في الجامعة عقب تخرجها بعامين، وأقاما في مسكن مناسب، وأنجبا ثلاثة أطفال صغار، ثم تطلع إلى تأمين مستقبله ومستقبل أسرته، فهاجر إلى أرض بعيدة تاركا وراءه أسرته في القاهرة، وعمل بضع سنوات متصلة بغير إجازات يرجع خلالها لأسرته حتى كوَّن بعض المدخرات الطيبة، وطالبته زوجته بالاكتفاء بما أتيح له من أسباب والعودة للاستقرار في بلده أو اصطحابها وأطفالها إليه، لأنها قد ناءت بوحدتها بعيدا عنه ومسؤوليتها وحدها عن الأسرة، فلم يستجب لرغبتها.. واندفع في سباقه المحموم لجمع الثروة واعدا إياها بالعودة بعد عامين أو ثلاثة، وطالت هجرته حتى كبر الأبناء في غيابه، وأصبحوا حين يرجع إليهم لمدة شهر واحد كل عامين لا يكادون يعرفونه، فعاودت زوجته الإلحاح عليه بالبقاء مع أسرته بعد أن تحقق له أكثر مما كان يحلم به لنفسه، لكن العجلة كانت - كما قال لي - قد دارت ولم يعد يستطيع إيقافها، فماطل زوجته في العودة، وراح يعدها كل عام بجمع الشمل والعودة لعمله السابق في مصر إلى أن مضت 17 عاما على هجرته وأفاق ذات يوم على زوجته تطلب منه الطلاق بإصرار وتتمسك به، حتى ولو أنهى كل أعماله في الخارج ورجع للاستقرار مع أسرته، وفوجئ بأبنائه وقد صاروا شبابا يؤيدون أمهم في مطلبها.. لأنهم لم يشعروا بوجوده الحقيقي في حياتهم.. وفشلت كل محاولاته لإقناعها بالعدول عن مطلبها، واضطر في النهاية للاستجابة لرغبتها مرغما..

وهو يمني نفسه بأن تراجع نفسها بعد حين، وعاد إلى مهجره مؤملا أن ترجع المياه إلى مجاريها بينهما بعد بضعة شهور.. فمضى عامان على الانفصال دون أن تعدل تزوجته السابقة عن موقفها منه، ودون أن ينجح هو في بعث الدفء في العلاقة بينه وبين أبنائه.

وبعد أن أنهى رواية قصته سألني: ماذا أفدت من ثرائي وأعمالي وقد تحطمت أسرتي وفقدت زوجتي التي أحببتها خلال مرحلة الدراسة، وأبنائي الذين تصورت أنني أجمع هذه الثروة لإسعادهم؟!

ولست أذكر بماذا أجبته وقتها.. لكني أذكر جيدا أنني وعدته بالاتصال بزوجته على غير سابق معرفة ومحاولة التوسط بينهما لإعادة شمل أسرتهما من جديد.. وفعلتُ ما وعدتُ به، ودار بيننا حوار طويل، مازلت أذكر منه حتى الآن هذه العبارة المؤلمة: «إنه لم يتعلم شيئا من أخطائه.. فلقد أضاع الحب والأسرة والأبناء من أجل هدف لم نكن نحتاج إليه، وطالما رجوته أن «يكتفي» بما حققه منه ويرجع لإنقاذ أسرته من الغرق فلم ينتصح.. ولو رجعت إليه الآن فلن يطول العهد حتى يهجرنا مرة أخرى بعد حين ويكرر الخطأ نفسه»!

ولم تنجح محاولتي معها للأسف، لكني احترمت فهمها الصحيح لما يستحق أن يسعى إليه الإنسان من الأهداف.. وما لا يستحق.

فلا شيء يعوض السعادة والأمان.. وسكون القلب إلى جوار من يحب ومن يهمه أمرهم من الأبناء.

ولقد أضفت إلى خبرتي بالحياة هذا الدرس الثمين الذي تلامست معه عن قرب في هذه القصة الواقعية وغيرها من القصص العديدة التي سمعتها وقرأتها في رسائل المهمومين إلى «بريد الجمعة».

وتعلمت من تجارب الكثيرين التي قرأتها على مدى العمر في مذكراتهم الشخصية وقصص حياتهم، فتعلمت من قراءتي لمذكرات الملك الحسن ملك المغرب التي صدرت بعنوان «ذاكرة ملك» هذا الدرس الحكيم منذ فترة قصيرة، وهو أنه: ليس من الحكمة أن نضيع الوقت في محاولة إثبات حسن نيتنا تجاه من لا يضمر لنا إلا سوء النية، لأنه لن يقتنع بذلك مهما فعلنا، ولأننا لن نستفيد من ذلك شيئا في تغيير نيته تجاهنا، وإنما الأجدى لنا إذا اضطررنا للتعامل معه أن نتجاوز هذه النقطة.. إلى نقطة أخرى عملية هي: ماذا تريد منا؟ وماذا ستقدم لنا مقابل ذلك؟

كما تعلمت أيضا هذا الدرس الآخر الثمين من قراءتي لإحدى خطب الزعيم السوفيتي الأسبق «نيكيتا خروشوف» وهو أنه: حتى الجنة لا ينبغي أن يساق الناس إليها بالعصا.. وإنما بالإقناع.. والحب.. والترغيب!

ذلك أن قهر إرادة الإنسان - ولو بهدف تحقيق الخير والعدل له - لن يحقق له السعادة.. وقد ينفره منها إذا أرغمناه عليها!

وتعلمت أو حاولت أن أتعلم ألا أكون ممن وصفهم المثل الإنجليزي القديم بأنهم مثل بحارة السفن القديمة لا يذكرون الله إلا ساعة الغرق! وتعلمت أو حاولت أن

أتعلم من أبي الفلاسفة سقراط أن ما لا أحتاج إليه لا يساوي عندي شروى نقير ولو تهافت الآخرون على نيله والحصول عليه، وبدا في أنظارهم شيئا ثمينا غاليا!

وتذكرت ـومازلت أتذكر كل يوم كلمته حين دخل متجرا حافلاً بالأشياء التي لا يستطيع - لفقره - شراءها أو الحصول عليها.. فتأملها قليلا ثم قال:

- ما أكثر الأشياء التي لا أحتاج إليها!

وقد اتفق معه في هذه الكلمة الحكيمة بعد ذلك بقرون القطب الصوفي الإمام الجنيد حين قال: إن الزهد هو فراغ القلب مما خلت منه اليد!

وليس فراغ اليد وحدها منه!

وإذا كان الخليفة العباسي المأمون قد قال ذات يوم - وقد كان مغرما بالمحاورات الأدبية والفلسفة والحكمة: ألذ الأشياء هو التنزه في عقول الآخرين! فلقد حاولت دائما أن «أتنزه» ولو لبضع ساعة كل يوم ومنذ صباي المبكر في عقول الآخرين ومؤلفاتهم وخبراتهم وتجاربهم مع الحياة، وأنصحك بأن تفعل أنت ذلك أيضا لتضيف أعمارهم إلى عمرك، وخبراتهم إلى خبراتك، وتجاربهم إلى تجاربك.

فنحن نحتاج ـكما قلت لك في البداية - إلى حياتين أو عمرين على الأقل لكي نفهم الحياة حق فهمها، ونحسن التعامل معها ومع من حولنا من البشر. وما دمنا لا نستطيع ذلك عمليا فلنكتف إذن باستعارة «أعمار» الآخرين.. أقصد خبراتهم ودروس حياتهم.

فلقد كان الفيلسوف الألماني «نيتشه» يقول: إن من لم ينتفع بخبرة ثلاثة آلاف سنة، لم يتجاوز زاده في الحياة خبز يوم بيوم.. أي خبرة يوم بيوم!

ولقد بدأت مقالي هذا عازما أن أحدثك عن كتاب ثمين قرأته منذ أيام، يروي فيه عدد من أعلام المفكرين قصص حياتهم وبعض تجاربهم في الحياة لنتشارك معا في هذه النزهة المفيدة في عقولهم وخبراتهم، فإذا بالحديث يأخذني بعيدا عن الغرض الذي قصدته.. وإذا بي أقع في خطأ تحديد الأهداف بدقة وعدم اتخاذ السبل المؤدية إليها من أقصر طريق.. فأتعلم من هذا الخطأ درسا جديدا، كما أتعلم كل يوم من أخطائي وأخطاء الآخرين.. وأعد نفسي ألا أكرره مرة أخرى، وبأن أحدثك عن هذا الكتاب القيم في حين آخر بإذن الله

بغير شرود عن الهدف.. ولا تخبط بعيدا عنه.. وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إزيك.. يا «ادّلعدي»

أنت لم تجرب هذا الإحساس المرير بعد وأرجو لك ألا تجربه..

أن تشعر بأن كل شيء قد أصبح وراءك.. وليس أمامك.. وأن كل الأشياء الجميلة، واللحظات السعيدة، والأماكن التي شهدت أجمل الذكريات.. كلها قد أصبحت ماضيًا بعيدا، ولا سبيل إلى استرجاعه إلا في الخيال..

وحتى هذا الخيال نفسه قد يعز عليك في بعض الأحيان أن تستمتع به إلا استمتاعا صامتا تسترجع به الأوقات السعيدة وتتحاور مع شخوصها وذكرياتها بغير كلام..

لأن من حولك لا يدرون بها، ولم يعاصروها معك، ولا يعرفون شخوصها.. فإذا فإذا تحدثت إليهم عنها لم تستشعر فيهم حرارة التجاوب معها.. ولم تجد لما تتحدث عنه الصدى الذي تتوقعه منهم، فتنطوي على ذكرياتك وتعايشها وحدك، وتهرب إليها كلما ضاقت نفسك بغربتك النفسية والمكانية.. وبوحدتك وببعد الأحباء والأصدقاء.. فتصبح بذلك كمن قال عنه الأديب المغربي المعاصر محمد شكري في روايته الشهيرة «الشطار»: «لم يعد يستمد بهجة الحياة إلا من

الماضي!»، فإذا التقيت بالصدفة بشخص يرتبط بهذا الماضي السعيد بشكل أو بآخر تشبثت به كما يتشبث الغريق بطوق النجاة، وحاولت أن تستروح معه عطر تلك الأيام الخالية.. والذكريات السعيدة والأماكن الجميلة التي ارتبطت عندك دائما بأجمل فترات العمر!

وأحسب أن ذلك المحامي الفرنسي العجوز الذي التقيت به في باريس منذ فترة قصيرة قد أحس بكل هذه المشاعر الأشجان حين التقى بي ووجد عندي بعض الصدى لذكرياته الجميلة عن القاهرة وشوارعها وملاهيها ومغانيها القديمة!

فلقد كنتُ على موعد مع بعض الأصدقاء في مطعم مصري هناك بدعوة من سيدة مصرية تقيم بباريس منذ 25 عاما وتملك فيها محلين تجاريين، وجاءت السيدة المصرية مصحوبة برجل فرنسي في الثامنة والسبعين من عمره، قدمته إلينا كمحاميها الذي يتولى شؤونها القانونية هناك، وحيانا الرجل بالفرنسية بحرارة بدت لي غير مألوفة بالنسبة لطبائع الفرنسيين مع الأغراب الذين يلتقون بهم لأول مرة، وجمعتنا المائدة، ففوجئت بالرجل يقول لي بالعربية باسما: «إزيك يا ادلعدي»!.. وضحكتُ للتعبير الشعبي المصري الذي كاد ينقرض الآن على ألسنة النساء في الأحياء الشعبية بالقاهرة، وقدرت أن أحد المصريين المقيمين بباريس ربما يكون قد حفظه هذا التعبير الدارج على سبيل المزاح.. لكن تقديري خاب حين وجدتُ الرجل ينطلق في الحديث بعد ذلك بالعامية المصرية القديمة التي اختفت بعض مفرداتها الآن من الألسنة، ويروي لنا عن حياته وذكرياته السعيدة في مصر والقاهرة وشوارعها ومقاهيها وملاهيها القديمة، واكتشفت أن الرجل قد تعمد أن يحييني بهذه العبارة الدارجة ليلفت نظري إلى أنه «ابن بلد» مصري، يفهم لغة أولاد البلد ويتكلم بها لأنه ولد بمصر وتعلم بها، حتى أصبح محاميا لدى المحاكم المختلطة القديمة التي كانت تختص بالنظر في القضايا والنزاعات بين

الأجانب بعضهم وبعض، وبينهم وبين المصريين قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية في مصر وتوحيد القضاء.. كما عرفت أيضا أنه قد عاش بمصر حتى سن السابعة والثلاثين، ثم أخرج منها حين وقع العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956، وقامت السلطات المصرية بترحيل رعايا الدول المعتدية، وكان هو يحتفظ بالجنسية الفرنسية تبعا لأبيه ولم يتنبه لضرورة الحصول على الجنسية المصرية إلا بعد فوات الأوان، فوجد نفسه بين يوم وليلة على ظهر باخرة متجهة إلى مارسيليا، ووجد نفسه أيضا مطالبا بأن يبدأ حياته في فرنسا من الصفر، بعد أن كان في مصر من علية القوم وأبناء الذوات، فكافح كفاحا مريرا في مجتمع قاس لكي يجد لنفسه مكانا فيه، وكلما ضاقت نفسه بوحدته ومعاناته اتجه بذهنه إلى مصر التي كان يعيش فيها حياة مرفهة سعيدة، فيقيم في فيلا واسعة بمصر الجديدة ويظفر باحترام المجتمع، وحنان دادة فضيلة التي ربته وأرضعته ويعتبرها أمه الثانية، وعطف عم صالح جنايني الفيلا الذي كان يحمله على كتفه ويتجول به في شوارع مصر الجديدة ويروي له الحكايات الجميلة حتى ينام بين يديه في الحديقة، ويستمتع بأوقاته وحياته في مغاني القاهرة القديمة.. وأماكنها الجميلة كأوبرج الأهرام وكازينو الحلمية بالاس وكازينو سان سوسى، وروف فندق كارلتون ومقهى الفيشاوي القديم.. ومطعم خريستو بالهرم.

وتدفق الرجل في حديث الذكريات الجميلة عن مصر والقاهرة وكلما وجد لدي علما بالأماكن التي يتحدث عنها لمعت عيناه في اهتمام شديد وسألني عنها: أمازالت موجودة كما هي؟ ويسعد حين أجيبه بالإيجاب، ويأسف حين أقول له إن بعضها قد زال من الوجود وحلت مكانه عمارات حديثة أو محلات جديدة.

واقتحم الرجل قلوبنا بحديثه الحار عن مصر وحبه الصادق لها وأدهشني أنه لم يرجع إليها بعد ذلك قط خلال الواحد والأربعين سنة الماضية.. ووجدت تفسيرا لذلك حين قال لي إن معظم أهله قد تفرقوا فوق الكرة الأرضية، وأنه لم يعد له من يرجع إليه في مصر بعد وفاة أبويه.. كما أن معركة الحياة في فرنسا قد شغلته بلقمة العيش والكفاح المرير عن كل شيء حتى تسرب العمر من بين يديه، ولم تبق له إلا الذكريات التي أعدناها نحن إلى ذاكرته بلقائه بنا!

وكأنما قد عثر الرجل على ضالته فينا بعد طول الغياب.. فلم يتوقف عن الحديث لحظة، ولم يدع شيئا في مصر لم يتحدث عنه، فحتى النكات المصرية القديمة رواها لنا وأضحكنا عليها بعاميته المصرية التي بدت غريبة بعض الشيء على آذاننا لانقراض بعض مفرداتها الآن وحتى عبارات الغزل التي كان أولاد البلد يحيون بها جمال بنت البلد العابرة بالطريق تتهادى في ملاءتها اللف.. مازال يذكرها ويرددها ويضحك لها بسعادة ويسألني عنها بحنين: أمازالت الملاءة اللف موجودة في القاهرة؟ ويأسف حين أجيبه بأنها قد انقرضت منها أو كادت.

وانتهت السهرة الجميلة وليس في ذاكرتنا سوى هذا المحامي الفرنسي العجوز الذي يجسّد لنا صورة «الأفندي المصري» في الأربعينات والخمسينات بحكاياته ولهجته وعباراته.

وبعد يومين اتصلت بي السيدة المصرية لتبلغني بأن المسيو «ليون» يدعوني وأصدقائي إلى العشاء في بيته ويلح في ذلك إلحاحا شديدا وأنه سوف يتصل بي لهذا الهدف، فلم تمض لحظات حتى اتصل بي مؤكدا الدعوة.

وفي الموعد المحدد ذهبنا إلى مسكنه في أحد أطراف باريس، فاستقبلنا وهو يتألق بدماء الحيوية والنشاط والأناقة الفرنسية ووجدناه قد أعد لنا بنفسه مائدة «حافلة» حرص على أن يخصني منها بطبق من الطعام النباتي الخالي من اللحوم أو الدواجن أو الأسماك احتراما «لنباتيتي» الوليدة منذ حوالي العام! وراح يتنقل بيننا في نشاط يداعب هذا.. ويشاكس ذاك، ثم اتجه إلى الكاسيت ووضع فيه شريطا، فإذا بأنغام أغنية مصرية قديمة كانت شائعة في الملاهي الليلية منذ حوالي 50 عاما تنساب في جو المكان وتلقى عليه ظلالاً شفيفة من شجن الذكرى.. إنها أغنية «لاموني الناس على حبي.. لاموني الناس.. وكان الذنب مش ذنبي.. ومال الناس؟»، فمن أين حصل على هذه الأغنية القديمة؟ وكيف احتفظ بها كل هذه السنين؟ ومن أين حصل أيضا على هذه الأغاني الجميلة لأم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ؟

أما حين جلسنا إلى المائدة فلقد انطلق على سجيته وفجر الضحكات الصاخبة من أعماقنا وهو يروي لنا ذكرياته الطريفة عن سن الشباب في مصر وأصدقاء الزمن القديم وحكاياتهم وطرائفهم.

وانقضى الوقت سريعا فلم نكد نشعر بمروره، واقتربت الساعة من الواحدة صباحا، وحان وقت الرحيل، فشكرت الداعي بكلمة قصيرة ورجوت له الصحة والسعادة إلى أن نلتقي مرة أخرى بباريس في الزيارة القادمة بإذن الله فإذا بملامح وجه الرجل الضاحكة تتجمد للحظات ثم تتحول تدريجيا إلى ملامح جادة.. ثم حزينة.. وإذا به يقول لنا إننا لا ندري كم أسعدناه بهذا الوقت القصير الذي أمضيناه معه.. وأعدناه به إلى الحياة.. وأشعرناه بأنه ليس وحيدا وغريبا في مجتمع «غريب».. لكن لأن لكل شيء نهاية دائما.. فها نحن سوف نعود لبلادنا وأهلنا وأصدقائنا.. ويبقى هو وحيدا بلا أهل ولا أصدقاء ولا ذكريات!

ثم طفرت دمعتان حائرتان من عينيه.. فأضفتا على وجهه طابعا من الحزن النبيل، فانحفرت صورته في ذاكرتي ومست قلبي وقلوب الحاضرين معي، وحل الصمت الثقيل على المكان للحظات.

لقد أضحكنا الرجل طوال السهرة حتى طفر الدمع من عيوننا في بعض اللحظات.. وها هو يبكينا في ختامها أيضا حتى يترقرق الدمع في عيون الحاضرين!

وودعناه وداعا حاراً لم يفلح خلاله أحدنا في أن يعيد الرجل إلى مرحه السابق، وغادرنا الشقة وصدورنا تجيش بالإشفاق عليه، فما أن انفردت بالصديقين المصريين المقيمين بباريس واللذين رافقاني إلى هذه السهرة، حتى طلبت منهما فيما يشبه الرجاء ألا يدعا هذا الرجل لوحدته طويلاً بعد عودتي لمصر، وبأن يشعراه بمودتهما له واهتمامهما بأمره فيدعواه ولو مرة كل شهر إلى اللقاء

بهما وبأصدقائهما من المصريين المقيمين هناك، ووعدني الصديقان خيرا.. وأرجو أن يفيا بالوعد.

واسترجعت خلال رحلة العودة في ليل باريس وجه الرجل في ختام السهرة وحزنه النبيل.. والدمعتين المتجمدتين في عينيه فتذكرت ما رواه العالم المؤرخ الأديب الدكتور «أحمد أمين» في كتابه الممتع «حياتي» حين سافر إلى إسطنبول مع زميله المؤرخ «عبد الحميد العبادي» في مهمة علمية لدراسة بعض المخطوطات العربية القديمة في مكتبات المدينة التركية، فحرص أحمد أمين على البحث عن أستاذه القديم بمدرسة القضاء الشرعي «علي بك فوزي»، الذي هاجر من مصر قبل عشرين عاما واستقر بإسطنبول وحيدا بلا أهل ولا زوجة ولا أبناء، وكيف سعد الرجل سعادة طاغية بلقاء تلميذه القديم وزميله، واستنجزهما الوعد بأن يلتقيا به كل يوم خلال وجودهما في إسطنبول، وكيف أنس الرجل لهما ووجد فيهما مهربا له من وحشته ووحدته. ثم حانت لحظة الرحيل، فزاراه للاستئذان في السفر عائدين لبلدهما، فإذا بالدمع يطفر من عين الرجل.. ويقول لها: أنتما تستأذنانني في فقد حياتي بعد أن كنت قد استرجعتها معكما!

وأحسب أن هذا الإحساس الأليم نفسه هو ما كان يساور المحامي الفرنسي العجوز ونحن نستأذنه في الانصراف بعد سهرة سعيدة عاش خلالها في أجواء ماض جميل ذهب وانقضى.. وهيهات له أن يعود إلا في شجن الذكرى.

لقد أصبح الرجل كبطل رواية محمد شكري وككثيرين غيره ممن أوغل قطار العمر وخلت حياتهم الحاضرة من أسباب البهجة والإيناس، فلم يعودوا يستمدون بهجة الحياة إلا من الذكرى وأصداء الماضي البعيد..

ألم أقل لك من البداية إنه إحساس مرير.. أرجو ألا تجربه ذات يوم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرقص بالعصا

علمني صديقي المحامي الفرنسي الذي يقترب من سن الثمانين درسا جديدا من دروس الحياة!

فلقد رجعت إلى مصر وكتبت عنه المقال السابق بمجلة الشباب بعنوان «إزيك يا ادلعدي»، إشارة إلى العبارة التي استقبلني بها حين تعرفتُ به لكي يقنعني بأنه مازال يتذكر العبارات العامية المصرية ولغة أولاد البلد

ثم جرفتني مشاغل الحياة، فلم أدر ذات يوم إلا وهذا المحامي الفرنسي يتصل ببيتي في غيابي ويبادر ابنتي التي ردت عليه بحديث ضاحك بالعامية المصرية يطلب منها في نهايته أن تشكرني على ما كتبته عنه، لأنه قد قرأ «المكال» في باريس وسعد به كثيرا، وعلمتُ من الأصدقاء المشتركين أنه قام بتصويره 30 صورة وزعها على أصدقائه ومعارفه، مؤكدا لهم أنه المقصود بهذا المقال ثم مضت شهور ورجعت السيدة المصرية التي عرفتني به في زيارة لبلدها، فإذا بها تحمل إليّ منه خطابا قصيرا باللغة العربيةٍ يبثني فيه أشواقه ويسأل متى يتجدد اللقاء، ومع الخطاب هدية.. تأملتها طويلاً وضحكت لها كثيرا، فلقد أرسل إليّ قميصا من اللون الأخضر الزاهي.. و «كرافت» خضراء اللون زاهية.. كأنها يقول لى بهديته: إنه مازال شابا بغض النظر عن حكم السنين، ويحب أن يكون الأصدقاء شبابا مثله!

ولم أتعجب لذلك كثيرا.. فهو يرتدي مثل هذه الألوان الزاهية ويسير على قدميه بنشاط وحيوية.. ويفتح أزرار قميصه عن صدره حتى الزر الثالث.. ويتعامل مع الحياة بروح الشباب، وليس بمنطق الكهول أمثالنا!

واحتفظت بهديته رمزا للشباب الضائع ولم أفكر بالطبع في استعمالها!

ثم سافرت إلى باريس في الشهر الماضي، فحملت إليه هدية رمزية صغيرة من مصر كان من بينها «سلايدز» لمشاهد متنوعة من التسعينيات ليقارن بينها وبين مصر الأربعينيات التي كان يعرفها، وصورة من العدد الأول من جريدة الأهرام الصادر عام 1876، سعد بها كثيرا واعتبرها «كنزاً» ثميناً.

ثم دعاني للعشاء في مسكنه مع شلة الأصدقاء.. وكلف سيدة فرنسية نباتية بإعداد مائدة من الطعام النباتي البحت إكراما لي، واجتمعنا في مسكنه.. فقدم لي صديقين من أصدقائه القدامى، كانا يعيشان مثله في مصر قبل أن يهاجرا منها في الخمسينيات، يبلغ أحدهما الثانية والثمانين من عمره.. وتبارى الثلاثة في الحديث معنا عن مصر وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب.. وتفوق الصديق الذي تخطى الثمانين من عمره في الاستشهاد خلال حديثه بالأمثال العامية المصرية التيٍ يحفظ الكثير منها.. حتى «حذرني» صديقي المحامي الفرنسي ضاحكا منه.. قائلا: إن هذا الرجل إذا حييته بتحية فإنه يجيبك على تحيتك بمثل عامي من محفوظاته القديمة، أو بيت من الشعر العربي القديم الذي مازال يحفظه! وروى الصديق الثالث أنه كان يتفوق على نظرائه من تلامذة الفصل في المرحلة الثانوية في حفظ

الشعر العربي، حتى تعجب لذلك مدرس اللغة العربية ولام زملاءه قائلا: أليس من العيب عليكم أن يحفظ هذا «الأجنبي» ما تعجزون أنتم عن حفظه من الشعر العربي؟

فيجيبه التلاميذ ضاحكين: أصله خواجة لئيم يا بيه!

وانتهت السهرة بين حديث الذكريات الممتع.. والمقارنة بين صوت عبد الوهاب في شبابه، وصوته في مرحلة الكهولة، وبين أغاني أم كلثوم القديمة في بداية حياتها وأغانيها في المرحلة الأخيرة من عمرها.

وأبلغني المحامي الفرنسي الصديق بأنه قد حزم أمره أخيرا وقرر أن يرجع لزيارة مصر في سبتمبر القادم ليرى الأرض التي عاش فيها طفولته وصباه وشبابه لأول مرة بعد 42 عاما من الغياب عنها! وقال لي: إن أول عنوان سوف يبحث عنه في القاهرة هو: 55 شارع العباسية، حيث كان يقع بيت الأسرة بفنائه الترابي الواسع، وحيث كان يلعب الكرة مع قرنائه من الصغار، وإن كان يعرف بالطبع أن البيت قد تحول إلى مدرسة ابتدائية أو ما يشبه ذلك.. وأما بقية العناوين.. فهي عناوين من بقي على قيد الحياة من أقاربه ورفاق شبابه.

وتكرر مشهد الوداع الذي تتندى فيه عيناه بالدمع النبيل عند الفراق، فكأنما يشعر فيه بأنه يفارق رموز ذكرياته الجميلة في مصر وصباه وشبابه فيها.. وغادرت باريس وأنا أستعيد في مخيلتي الحديث الذي اعتبرته درسا جديدا من دروس الحياة التي قد ينقضي العمر كله بغير أن يستوعب المرء كل خبرتها.

فلقد روى لي هذا المحامي الفرنسي -الذي يبلغ من العمر الآن 79 عاما- أنه يقضي نهاره في مكتبه يمارس أعماله القانونية.. ويتعامل مع عملائه ومساعديه بجدية وحزم، ثم يرجع إلى مسكنه في الخامسة والنصف مساء، فيضع حقيبة أوراقه في مكانها التقليدي، ويقضي ساعتين كاملتين في سماع الموسيقى والأغاني المصرية القديمة قبل أن يتناول عشاءه في السابعة والنصف، ثم يجلس أمام التليفزيون ليشاهد نشرة أخبار الثامنة التي يحرص معظم الفرنسيين على متابعتها، ويتابع بعدها بعض البرامج الأخرى لمدة ساعتين أخريين، ويدخل غرفة نومه في العاشرة، ويستسلم للنوم على أنغام الموسيقى الهادئة.. ويصحو في السادسة صباحا ليبدأ يوما جديدا من حياته مفعما بالنشاط والحيوية والإقبال على الحياة!

وأما «الدرس» فيكمن في الساعتين اللتين يقضيها في سماع الموسيقى والأغاني المصرية القديمة.. إذ إنه يضع في المسجل شريطا لا أدري كيف استطاع الحصول عليه في باريس، يتضمن عزفا بالمزمار البلدي لبعض القطع الموسيقية الشعبية التي تصاحب عادة رقص الخيل في مصر ويستمع إليه أكثر من مرة، وقد يستخفه الطرب خلال ذلك فيرقص على أنغامه بالعصا وهو وحيد في مسكنه، وليس مهما أن يشاهده الجيران النافذة المفتوحة وهو يرقص رافعا العصا على طريقة أولاد البلد ولا أن يظنوا به الجنون.. وإنا المهم هو أن يفرغ شحنة التوتر التي تجمعت داخله خلال يوم العمل الطويل، وأن يشعر بالابتهاج والاستمتاع بالحياة خلال

هاتين الساعتين قبل أن يجلس إلى مائدة العشاء، وبعد وجبة المزمار البلدي والرقص بالعصا يأتي دور الطرب الأصيل، فيسمع اغنية أم كلثوم القديمة «أنا في انتظارك» أو كما يسميها هو «أنا في الانتظار»، ويطرب كثيرا وقد يصفق وحيدا بين المقاطع.. أو يصيح قائلاً: «الله يا ست»، أو «عظمة على عظمة على عظمة».. كما كان يردد جمهور «كوكب الشرق» عند استحسانهم لغنائها!

ولقد روى لي صديقي المحامي الفرنسي ذلك، فوشت ملامحي فيما يبدو بما أعتبره عدم تصديق لما يرويه، فغادر غرفة المعيشة ليضع شريطٍ المزمار البلدي في المسجل.. ثم غاب في غرفة نومه للحظات، ورجع حاملاً عصا كتلك التي يستعملها راقصو الفنون الشعبية، وترقب بداية معزوفة جديدة من الشريط ثم راح يتمايل على أنغامها باستمتاع شديد شاهرا العصا، حتى أتم الرقصة كاملة وسط ضحكاتنا.. وتصفيقنا.. وإعجابنا بروحه الشابة وقلبه الطروب!

ثم قال لنا في النهاية: إنه يستعين بهاتين الساعتين من الطرب والموسيقى على وحدته، وجفاف العمل، وتوترات الحياة المختلفة!

وأيدته بحماس في فلسفته الخاصة هذه في الحياة، وتذكرت كلمة الشاعر الألماني «نيتشه» التي تقول: إن الإنسان في وحدته أقرب ما يكون إلى الجنون!

وتمنيت لو استطاع كل إنسان أن يمارس في حياته الخاصة بعض هذا الجنون العاقل الذي يغسل الأحزان، ويجدد الحيوية، ويغرس البهجة في الروح المتجهمة ولا يضر أحدا!.. فهو «جنون مفيد» يعين الإنسان على همومه.. ويساعده على الابتهاج بالحياة بغير أن يقترف إثما أو يرتكب معصية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لن أركب السفينة

تستطيع أن تغني للدنيا وتبتهج بها وترى كل الأشياء من حولك جميلة وواعدة.. وتستطيع أيضا أن تكره الدنيا وتكتئبها ولا ترى فيها إلا كل ما هو رديء ومعين وباعث على التشاؤم!

والدنيا هي الدنيا في الحالتين، وأنت هو أنت في حال الابتهاج بها، وحال الاكتئاب منها لكن جهاز الاستقبال الداخل عندك هو الذي تغيرت «شفرته» فتغير تأثر بها وتجاوبك معها!

وهذه حقيقة نفسية عرفها الحكماء منذ قديم الزمان، وفسرها علماء النفس في العصر الحديث وبرروها، ففي تاريخ الفلسفة الإغريقية حكاية معروفة عن فيلسوفين هما: هيروقليطس وديموقريطس، كانا ينظران إلى سخافات الناس فيختلف تأثر كل منهما بها، فيرى فيها الأول سببا للضحك من عقول البعض وساجتهم، ويرى فيها الثاني مبررا لأن يحزن لحال البشر ويكتئب له فكان هيروقليطس ينظر إلى الحياة بعين التفاؤل، ويرى أخطاء الناس في حقه وحق الآخرين تافهة ولا تستحق إلا الضحك من تفاهة أصحابها، وكان ديموقريطس ينظر إليها بعين التشاؤم، فيراها مأساوية وتستحق البكاء من أجلها!

والحق أن معظم ما يواجهه الإنسان في حياته اليومية من مفارقات ومواقف، يستطيع إذا شاء أن يحزن له ويكتئب.. ويستطيع كذلك أن يضحك منه ويتعالى فوقه، وهو يكرر بذلك مثال الدلوين الشهيرين في القصة القديمة التي تحكي أن دلوين كانا مربوطين بحبل ومعلقين على بكرة فوق بئر، فينزل أحدهما فارغا وهو يتراقص كأنه يضحك متفائلا، ويصعد الآخر ممتلئا ويفيض منه الماء كأنه يبكي، والتقى الدلوان فيمنتصف الطريق، فسأل الدلو الراقص زميله الباكي:

- لماذا تبكي؟

فأجابه:: وكيف لا أبكي وأنا أحمل الماء الثقيل بصعوبة وأصعد إلى أعلى، فيعيدني صاحبي إلى ظلام البئر من جديد!!

ثم سأل الدلو الباكي زميله: وأنت لماذا تتراقص؟

فأجابه: وكيف لا أتراقص وأنا أنزل إلى قاع البئر فأمتلىء بالماء العذب الصافي، وأصعد لأعلى فأستمتع بالضوء والشمس من جديد!!

وهكذا نحن جميعا.. منا من يكرر مثال الدلو الراقص، ومنا من يكرر مثال الدلو الباكي المتشائم..

وفي أمريكا تنتشر الآن كتب مدرسة جديدة في التأليف، اسمها مدرسة «الدافعية»، وهي كتب يحاول مؤلفوها أن يحركوا دوافع الحياة والتقدم في داخلك، وأن يعلموك كيف تحتفظ بشمسك الداخلية ساطعة طوال العمر، وكيف تستثمر حياتك وقدراتك وأوقاتك أفضل استثمار.. وكيف تستمتع بجمال الأشياء والعلاقات الإنسانية وكيف تحسن من طريقة تفاعلك مع الحياة وتزيد من جرعة

الأمل والتفاؤل في وجدانك، وهي كتب تلقى الآن رواجا كبيرا بين القراء من الشباب والكهول على حد سواء.. ولمؤلفيها أتباع وأنصار يقرأون كتبهم ويشهدون محاضراتهم ويطبقون إرشاداتهم لتحسين مستوى تفاعلهم مع الحياة، ويستمعون إلى شرائط تعليماتهم بصفة يومية وفي كل موقف يواجهونه، وهي إرشادات تتراوح ما بين كيفية تحسين القدرات في العمل.. إلى كيفية التنفس بعمق خلال أوقات الراحة.. وحتى كيفية تعلم الاسترخاء التام في البيت بين فترات النشاط، وكيفية النوم بعمق في الليل، وكيفية الاستمتاع بأوقات الفراغ وكيفية إدارة علاقاتك الشخصية والاستمتاع بالصداقة والزمالة في العمل، وفي البيت، وفي الحي الذي تقيم فيه.

وليس من الغريب أن تجد رجلاً في السبعين من عمره يستمع إلى شريط لأحدِ مؤلفي هذه الكتب لكي يتبع إرشاداته حول ما ينبغي عليه أن يفعله إذا زار مثلاً ابنه المتزوج في بيته وبين أسرته الصغيرة، أو إذا «هجرته» صديقته وتركته للوحدة والفراغ! فالجميع كبارا وصغارا سواء أمام الحاجة إلى تعلم فن الحياة السعيدة.. وأمام الحاجة لمن يرشدهم إلى كيفية اكتشاف أنفسهم ومهاراتهم الاجتماعية، وكيفية تأجيج دوافعهم الذاتية للاستمتاع بالحياة.

وقديما قال الأديب الفرنسي الراحل «ألبير كامي»: إنه من بين كل العلوم والفنون، لم يجد «فنا» أصعب في تعلمه من فن الحياة ومن نصائح خبراء الحياة هؤلاء لك: أن تتعلق دائما بالأمل في الغد الأفضل ولو كان عمرك يقترب من المائة، وأن تؤمن مع الفيلسوف الألماني المتفائل «ليبنتز» بأن هذا «العالم» هو أفضل عالم يحتمل أن يكون موجودا في الكون كله، حتى ولو ساءنا منه ما نراه فيه من بعض صور الشر والظلم، وألا تضعف أمام بعض صور الشر في الحياة فتقول أحد أبطال رواية «كانديد» للمفكر الفرنسي فولتير:

إذا كان هذا هو حال أفضل عالم في الكون، فكيف يكون إذن حال «العوالم» الأخرى؟

ودهش الصديق الأديب لأن أرفض كاتبا لمثل هذا السبب غير الشخصي، خصوصا وأنه لم تكن تربطني وقتها علاقة حميمة بالروائي المقصود، ثم قال لي: إن «فلانا» قد سامحه على ما فعل وتفهم ظروفه النفسية المعقدة التي دفعته لذلك.

فأجبتهُ على الفور: لكني لم «أسامحه» بعد على هذا الجحود الإنساني وهذا الغدر بصديقه، ولستُ أعتذر عن عدم قبوله للأسباب الأخلاقية فقط.. وإنما لدي أيضا أسباب «أنانية»، فلست أريد أن ينضم إلى كتاب مجلة الشباب هذا الكاتب، فأضطر للتعامل معه..

ويدخل بذلك دائرة تنفسي، فلا أنجو مها فعلتُ معه من سهم من سهام نفسه المظلمة ذات يوم، ولهذا فإني أشكرك على الاقتراح وأعتذر عن عدم استطاعتي تنفيذه!

ومن هنا تأتي أهمية ألا تعرف وألا تقترب إلا من أصحاب القيم الأخلاقية والإنسانية والدينية، وألا تسمح لغيرهم باختراق أسوارك النفسية والشخصية.. فمعظم أسباب النظرة التشاؤمية إلى الحياة يكمن وراءها أشخاص وسلوكيات، ومواقف غدر وخسة وجحود من هذا النوع.

وهذا النوع من البشر لا أحب أن أركب معه «السفينة» ولو كان فيها سبيل النجاة الوحيد من الغرق!

ولهذا أيضا ينصحك خبراء الحياة بأن تعرف أنت أيضا أهمية القيم في حياتك، لتكون صديقا غاليا على الآخرين، وأن تختار أصدقاءك في البداية على أساسها، كما ينصحونك بأن تؤمن مع العقلاء وذوي القلوب الحكيمة بأن في الحياة أشياء كثيرة ثمينة لا تشترى بالمال، ولا تعوضها كل ثروات الأرض كالصحة والسعادة والصداقة المخلصة، والعشرة الجميلة والاطمئنان النفسي وراحة القلب والضمير

ويقولون لك أيضا: إن العمل الشاق لا يقضي على الصحة أو الشباب كما يتوهم الكسالى والمتبطلون، بل إن العكس هو الصحيح، لأن قوة الخلق والابتكار لدى الإنسان تبدأ غالبا بعد الأربعين، وأنه إذا كان جسم الإنسان يبدأ في التراجع بعد الأربعين فإن عقله لا يهرم ولا يشيخ، وإنما يزداد توهجا إذا حافظ على اهتمامه بالحياة من حوله، وحرص دائما على أن يجعل لنفسه في كل مرحلة من مراحل العمر هدفا صغيرا يسعى لتحقيقه، ثم ينتقل من بعده إلى هدف آخر قريب، فالشيخوخة الحقيقية هي في الإحساس المدمر بأن العمر قد انقضى ومات الأمل.. وضاعت الأهداف والغايات والاهتمامات، وليست في أي شيء آخر.. ولقد عرفت رجلاً فاضلاً كان موظفا حكوميا كبيرا قبل إحالته للمعاش منذ 28 عاما، يقضي أوقاته في القراءة والبحث والكتابة بالرغم من أنه لم يكن في يوم من الأيام كاتبا ولا باحثا، لكنه أراد أن يحافظ على توهج الشمس الداخلية لديه، فخلق لنفسه هذا الاهتمام الجديد وراح يقرأ ويبحث ويكتب حتى ولو لم يقرأ أحد ما كتبه.

وقد فاجأني منذ ست سنوات بدراسة من 300 صفحة كتبها بيده وبخط جميل مرتب عن مشاكل الأسرة المصرية من خلال رسائل بريد الجمعة في فترة زمنية محددة، وتفضل بزيارتي مهديا إليّ هذه الدراسة القيّمة، فكان إعجابي بحيوية الرجل وحسن اختياره لما يشغل به فراغه لا يقل عن إعجابي بدراسته القيّمة المفيدة. وقد طبع الأهرام خمسمائة نسخة من دراسته هذه ليهديها لمكتبات كليات الإعلام والدور الصحفية والمهتمين بهذه الدراسات، وغاب عني الرجل الفاضل عامين ثم رجع إليّ بدراسة أخرى في 300 صفحة عن بريد الأهرام اليومي وتيارات الرأي العام التي يعكسها خلال فترة محددة، ثم بدراسة ثالثة ورابعة، حتى بلغ مجموع صفحات دراساته هذه 1400 صفحة، كتبها كلها بخط اليد حتى الآن، ومازال الرجل الفاضل يقرأ ويبحث ويكتب متعه الله بالصحة.

وهكذا تستطيع أنت أيضا أن تفعل وأن تخلق لنفسك الاهتمامات الجديدة التي تناسب كل مرحلة من مراحل عمرك، وتستطيع أيضا أن تحتفظ بحرارة العواطف

حتى اللحظة الأخيرة من مسرحية الحياة، وأن تكون قادرا على الإحساس بالمشاعر الرومانسية الجميلة والمشاعر الإنسانية وتذوق الجمال في كل الأشياء.

فإن لم تفعل ذلك، واستسلمت لليأس والضغط والتشاؤم، وفضلتَ - كما يفعل البعض - أن تعذب نفسك بكل الأشياء بلا مبرر فلسوف أقول لك ما قاله هذا المؤلف الأمريكي على لسان إحدى شخصياته الروائية لإنسان مهموم بأمره دائما بلا أسباب جدية: لماذا تعذب نفسك بلا مبرر.. والحياة لن تتأخر عن القيام بهذه المهمة أفضل منك حين توجد الأسباب الحقيقية للتعاسة والعذاب؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدفـــة سعيـدة

المثل العربي يقول: لا يغني حذر من قدر.

والحكمة العربية القديمة تقول: من مأمنه يؤتى الحذر!

والمثل العامي المصري يتوعد من يغالي في الخوف من «العفريت» بأن يظهر هذا العفريت له وحده دون غيره من البشر الذين لا يتوجسون كل هذا التوجس منه!

وقد تذكرت كل ذلك ذات صباح وأنا في مطار إحدى المدن الأوروبية أستعد لركوب الطائرة عائداً إلى بلدي بعد أسبوعين قضيتها فيها فلقد تحسبت طوال وجودي في هذه المدينة لشيء بذاته وحرصت على تفاديه بكل السبل على مدى أسبوعين، فشاء القدر أن يذكرني بحكمته في اللحظة الأخيرة!

وأصل الحكاية أن لي ثروة ثمينة من الأصدقاء الحميمين الذين يقيمون خارج مصر، فإذا سافرت إلى الخارج في إجازة أو عمل حرصت على الالتقاء بهم **وقضاء أسعد الأوقات معهم: بل إنني قد أحدد في بعض الأحيان خط سير الرحلة إلى الخارج على أساس خريطة هؤلاء الأصدقاء الموزَّعين في أرجاء الكرة الأرضية، فإذا كنت مسافرا إلى باريس، فإني أُمنِّي النفس قبل السفر بلقاء الأحباء المقيمين هناك، وأتخيل أوقات الصفاء التي ستجمعنا معا، وأوقات السمر التي ستطول بيننا و«المؤامرات» التي سندبرها لهذا الصديق أو ذاك للاستئثار به معظم أوقات الرحلة دون بقية شواغله واهتماماته، ولا أكتفي بذلك، وإنما أفكر أيضا في برنامج الرحلات الداخلية والخارجية خلال الزيارة، والذي سنحاول تنفيذه بلا هدف سوى أن نلتقي بالأصدقاء المقيمين في العواصم والمدن القريبة نسبيا.**

وإذا سافرت إلى دولة عربية كان كل همي هو أن أرى من أعرفه من الأصدقاء فيها أو في العواصم القريبة منها. ونفس الشيء إذا سافرتُ إلى أمريكا أو آسيا.. ومن اللحظة التي أصل فيها باريس مثلاً يبدأ الاتصال بيني وبين الأصدقاء المقيمين في العواصم القريبة، ويحتدم الجدال التقليدي بيني وبينهم على النحو التالي:

تعال إلى فيينا - مثلاً - في عطلة نهاية الأسبوع.

لا.. تعال أنت إلى باريس الآن بغير انتظار للعطلة.

وقد يُغالي بعضهم في حسن الظن بقدرتي على الحركة، فيقول لي أحدهم - كما حدث أكثر من مرة وأنا في باريس: تعال إلى واشنطن، ناسيا أن بيني وبينه محيطا ورحلة تستغرق ثماني ساعات بالطائرة! وهكذا معظم أيام الرحلة.. وقد ينتهي الأمر بي بالسفر إلى لندن بالقطار، أو إلى أمستردام بالسيارة، أو إلى فيينا بالطائرة. وقد يستسلم أصدقاء الخارج في أحيان أخرى لرغبتي، فيأتون إلينا في إجازة قصيرة إلى باريس خلال وجودي بها، فأعتبر هذه الفترات السعيدة التي

نقضيها معا ساعات مسروقة من العمر تجدد الصداقة وتغسل النفس من همومها وتُثْري الروح.

وكان الصديق الذي سأحدثك عنه هنا واحدا من هؤلاء الأصدقاء المقيمين خارج مصر.. وكانت زيارتي إلى المدينة التي يقيم فيها كل سنة فرصة ذهبية لتبادل أنخاب المودة الصافية معه، غير أني لاحظت خلال السنوات الأخيرة أن شيئا جوهريا في روحه قد تغير.. وأنه لم يعد نفس الصديق الذي أجد معه سكينة الروح كما كان الحال من قبل، وسمعتُ من الأصدقاء المقيمين هناك شكاوى مريرة منه ومن بعض تصرفاته، ومن اعتماده الدائم على تسامح الآخرين معه.. ولمستُ منه شخصيا بعض ما أكد لي صدق هذه الشكوى، ووجدت نفسي في البداية أتعامل معه بمنهجي مع الأصدقاء الذين أحرص على ألا ينقطع حبل المودة بيني وبينهم، فأتجاوز عن بعض هناته، وأفسرها دائما بحسن النية أو قلة الإدراك، وأتجاهل الجوانب السلبية في شخصيته وأتعامل مع الجوانب الإيجابية منها.. مرددا لنفسي دائما قول الشاعر:

إِذا كنتَ في كلِّ الذُنوبِ مُعاتِباً صَديقَك لَم تَلقَ الَّذي لا تُعاتِبُه

أو متذكرا قول ابن الرومي:

همُ الناسُ والدنيا ولابُدَّ منْ قذىً

يُلِمُّ بعينٍ أو يُكدِّرُ مشْربا

ومنْ قلَّة الإنصافِ أنَّك تبتغي

المُهذَّب في الدنيا ولست المهذَبا

حتى إذا امتلأت الكأس بما تنكره النفس على أحد الأصدقاء وتعكر صفوي تجاهه.. وجدت نفسي محكوما بطبعي الذي لا حيلة لي فيه، راغبا عن محبته لفترة من الوقت أعتبرها فترة نقاهة ضرورية، وأحاول خلالها إفراغ الكأس من محتواها لترجع خالية من جديد، ثم أستأنف لقاءاتي به وليس في صدري مالا أحب أن ينطوي عليه تجاهه، فإذا عاتبني على الانقطاع عنه تلك الفترة وجدت في نفسي أخيرا القدرة على الإشارة إلى ما ثقل على التجاوز عنه من أمره، وعاتبته عتاب من يتلهف على أن يجد لديه ما ينفي ظنونه، وليس ما يثبت الخطأ.. ولقد يضيع من الذاكرة أكثر ما وجدته عليه من قبل، فلا أتذكر منه إلا أقل القليل، وأحمد الله كثيرا على ذلك؛ لأن الحياة السليمة تحتاج إلى ذاكرة ضعيفة بالنسبة لأخطاء الأصدقاء، وقوية بالنسبة لمآثرهم وعطائهم، ولولا هذه الذاكرة المركبة لما طالت صداقة، ولا استمرت علاقة إنسانية طوال رحلة العمر.. ولقد كانت مشكلتي في ذلك الصيف وأنا أستعد للسفر إلى تلك المدينة الأوروبية أن صديقي هذا كان قد تمادى في الاعتماد على تسامحي معه وتجاوزي عن هناته، فأساء إلي عن قصد أو غير قصد إساءة مؤلمة؛ فامتلأت كأسي بالنسبة له، ووجدتُ نفسي قبيل السفر أتساءل: كيف سأقضي في مدينته أسبوعين كاملين بغير أن نلتقي خلالها، والأصدقاء المشتركون بيننا كثيرون، وسيعلم بالضرورة منهم بوجودي في

المدينة؟! وكيف سأتعامل معه إذا اضطررت للقائه بغير أن ينعكس عتبي عليه في فتور لقائي به، وهذا ما لا أرضاه له أو لنفسي في مثل هذه الظروف؟!

وشغلتني هذه المشكلة حتى أصبحت هما ثقيلا بالنسبة لي قبيل السفر وبعد تفكير «طويل» فيها انتهيت إلى أنه من الأفضل لي وله ألا ألتقي به وأنا مازلت عاتبا عليه ما اعتبرته إساءة غير مفهومة لي، لكيلا أعجز كعادتي عن التعامل معه بصدر سليم، فيكون ذلك سببا لتعميق المشكلة بدلاً من حلها. وارتحت إلى هذا الاختيار، وشعرت بأنني لن أقدر على سواه؛ لأنني للأسف واحد ممن يعجزون عن إخفاء مشاعرهم الداخلية تجاه الآخرين.. إيجابية كانت أو سلبية.. بل إنها تنعكس رغما عني على صفحة وجهي، ويتعذر على أن أتعامل بود ظاهري مع من لا أجد له في نفسي ودا حقيقيا.. كما أني لا أرى نفسي مطالبا بالتظاهر بغير ما أشعر به في أعماقي تجاه الأصدقاء المقربين والأهل والأحباب، لأن تكلف المشاعر معهم لا يتفق مع عمق العلاقة، ولأنه إذا جاز للإنسان أن يتعامل مضطرا مع من ينكر عليهم بعض سلوكهم تجاهه في دوائر العمل والحياة، محتفظا لنفسه بمشاعره الحقيقية تجاههم، فإن ذلك لا يجوز له أبدا في دائرة الصداقة، حيث لا أجد مبررا لأن يجالس الإنسان في أوقات سمره وصفائه من تتكدر مرآته الداخلية منه، أو من لا يشعر بالصفاء التام تجاهه.. وهكذا استقر رأيي على السفر إلى هذه المدينة بغير الاتصال به مسبقا، وعلى قضاء الفترة المقررة لي فيها دون لقاء معه.

ونفذت ما انتويته وأوصيت الأصدقاء المقيمين هناك بتجنب إبلاغه

بقدومي إليهم، وبالغت في ذلك تجنبا لحرج اللقاء معه دون صفح حقيقي في داخلي تجاهه، وحرمت على نفسي كل الأماكن والمظان التي اعتدنا أن نلتقي فيها خلال وجودي في مدينته، وكلفت نفسي وأصدقائي رهقا في سبيل الالتزام بذلك، فاعتذرت عن دعوة للعشاء في بيت أحد الدبلوماسيين المصريين بالمدينة لعلمي أنه سيكون من بين المدعوين إليه، واعتذرت عن حفل مماثل في أحد المطاعم لنفس السبب، وتجنبتُ المرور أمام المقهى الذي اعتدنا اللقاء فيه طوال فترة إقامتي لكيلا نلتقي بالمصادفة فيه أو أمامه، وكلما سألني أحد الأصدقاء عن سبب ذلك، أجبته بأنه لصالح صداقتنا، وأن المسألة مسألة وقت لا أكثر.. تصفو النفس بهذه، وقد لا أحتاج حينذاك حتى إلى العتاب والحساب معه!

واحترم الأصدقاء رغبتي في ذلك، ومضت فترة الأسبوعين في بهجة خالصة ومتعة حقيقية بين أصدقاء لا ينطوي أحدهم للآخر إلا على أجمل المشاعر.

وهنأت نفسي على نجاح خطتي، وقوة عزيمتي.. ثم حان يوم السفر، فاصطحبني أحد هؤلاء الأصدقاء إلى المطار وأنهينا الإجراءات، ووجدنا أمامنا بعض الوقت فاتجهنا إلى كافتيريا المطار لنحتسي القهوة ونتبادل حديث الوداع.. فلم نكد نمشي في زحام المسافرين والمودعين بضعة أمتار، حتى وجدت صديقي هذا يلكزني في جنبي ويقول لي هامسا: لا تنظر خلفك!!

فسألته هامسًا بدوري: لماذا؟

فقال: فلان خلفنا ببضع خطوات ومعه الدبلوماسي المصري الذي كان ينبغي أن نتناول العشاء في بيته منذ ليلتين!

يا ربي.. تجنبت كل مظان اللقاء به على مدى أسبوعين كاملين، وظننت أنني قد تجنبت الحرج معه.. فيكون لقاء المصادفة بيني وبينه في المطار وأنا أتأهب للعودة؟! ماذا أفعل الآن؟ وكيف أبرر له سفري بغير الاتصال به ومقابلته طوال فترة إقامتي بمدينته؟ وكيف ينعكس ذلك سلبيا على علاقتي به وأنا من تجنبت لقاءه طوال فترة عتبي عليه لكي نتجاوز هذه السحابة الثقيلة بعد بعض الوقت؟.. حِرتُ فيها أفعل.. ولم أجد مفرا من مواصلة المشي في اتجاه الكافتيريا على أمل أن تغيب عنه رؤيتنا في زحام المسافرين بالمطار.. واتجهنا إلى الكافتيريا، فاخترتُ أبعد مقعد فيها وجلست إليه موليا ظهري للمدخل.

وجلسنا نحتسي القهوة في صمت وارتباك، وقد تكدر صفوي بهذا الحرج المباغت.. فمضت بضع دقائق ظننتُ بعدها أني قد نجوت من الموقف المحرج.. فلم أكد أطمئن لذلك حتى رأيت صديقي الذي يجالسني قد انتفض واقفا وهو يقول مرتبكا: أهلا سيادة السفير!!

ووقفت بدوري، فإذا بالدبلوماسي المصري - وهو بدرجة سفير- يقف مع الصديق إياه خلفي مباشرة، ويمد يده لي مصافحا ومبتسما، فأصافحه وأنا في غاية الاضطراب، ثم أنظر فأرى صديقي يقف إلى جواره في جمود وقد تضرج وجهه بالاحمرار والغضب، فأمد يدي إليه وأنا لا أكاد أراه من شدة الحرج والخجل..

وإذا بالدبلوماسي اللمَّاح يقول لي بلهجة ذات معنى: اسمح لي أن أقدم إليك صديقك فلانًا!!

فبلغ بي الحرج قمته، وشعرت بأن السفير قد أدرك الموقف بيني وبينه.. وأنهما لابد قد رأيانا قبل ذلك بفترة في أبهاء المطار، ولاحظا محاولتنا لتفادي اللقاء معهما فتتبعانا إلى الكافتيريا، ولعلهما تحدثا خلال ذلك عن تلك الجفوة الطارئة بيني وبين هذا الصديق.. وأراد السفير أن يذيب الجليد بيني وبينه بتقديمه إليّ بهذه الطريقة المسرحية!

ولم أعجب حين علمت أن السفير سيسافر معي على نفس الطائرة، لكني عجبت حقا حين عرفت أن الصديق إياه من بين كل أصدقائه هو الذي جاء معه للمطار لوداعه!

فإذا كنت قد تذكرت في هذه اللحظة كل الأمثال والحكم العربية عن الحذر الذي لا يغني عن قدر، فلقد تذكرت أكثر منها ذلك المثل الدارج عمن يتمنى أن تنشق الأرض تحت قدميه لتبتلعه فينجو بذلك من موقف يشعر فيه بالإحراج والكسوف!

ألا لعنة الله على خطرات النفس التي تفسد على الأصدقاء القدامى بهجتهم السابقة بلقاء بعضهم بعضا وتحل محلها مثل هذا الحرج والضيق!

لقد حدث كل ما خشيته من قبل إذا تم اللقاء بيني وبين هذا الصديق قبل أن تتخلص الكأس مما يملؤها.. وبدلاً من أن نتصافى بعد قليل من الزمن وترجع صداقتنا إلى

سابق عهدها.. ازداد الأمر تعقيدا، واعتبرت أنا في الحساب الختامي - مخطئا في حقه.. وليس صاحب حق عليه! ولم أجد ما أدافع به عن نفسي سوى أننى قد رغبتُ في ألا نلتقي إلا وأنا كسابق عهدي معه لا أحمل له إلا الود والمحبة.

لكن شتان ما بين العتاب من موقف الاستعداد للتسامح والتجاوز عن الهفوات، وبينه من موقف الحرج والشعور بالخطأ..

فلقد سُحِبَت السجادة من تحت قَدَمَّي.. وتحولتُ من ضحية إلى جانٍ، وكل ذلك بسبب هذه الصدفة «السعيدة» في مطار تلك المدينة الأوروبية ذات صباح!

ألا تراني محقا إذن في كراهية المبالغة الزائدة في الحذر الذي لا يغني عن قدر والخوف الشديد من الأشياء الذي قد يدعوها للمجيء إليك بدلاً من إبعادها عنك؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولا فخر

في فيلم مصري قديم، رجع الأب إلى بيته فوجد ابنه الصغير يستذكر دروسه ويقرأ فصلا عن فتوحات نابليون، وكعادة الآباء فقد وجدها فرصة لاستثارة حماس ابنه للنجاح والتفوق، فقال له بلهجة ذات معنى: إن نابليون حين كان تلميذا صغيرا كان متفوقا في دراسته ويأتي ترتيبه الأول دائما على فصله.. وليس الخامس مثله!

ولم تَفُتِ «الغمزة» على الطفل الشقي.. فقال لأبيه على الفور.. ومن نفس «المقام»: إن نابليون كذلك حين كان في عمر الأب الآن كان قد أصبح إمبراطورا لفرنسا وليس موظفا صغيرا بإحدى الشركات! فلم يملك الأب إلا أن يضحك لسرعة بديهة طفله ويزجره طالبا منه الاهتمام بدروسه!

فالمشكلة هي قفشة ذكية؟.. نعم.. ومحرجة أيضا، لكننا قبل أن نلوم هذا الطفل الشقي على إحراجه لأبيه بهذه المقارنة الظالمة ينبغي لنا أيضا أن نتأمل ما تكشف عنه هذه المساجلة بين الأب وابنه من رموز ومعان!

فالمشكلة هي أن كل أب وكل أم في الوجود يريدان لأبنائهما أن يكونوا دائما الأفضل والأنجح بين كل الأبناء، ولتحقيق هذا الهدف فقد يسرف بعضهم في استخدام أسلوب المقارنة بالغير لاستثارة حماس الأبناء ودفعهم للتفوق، لكن المغالاة في استخدام هذا الأسلوب تحقق دائما نتائج عكسية، وبدلاً أن تخلق لدى الأبناء الغيرة الإيجابية التي تدفعهم لبذل الجهد وبلوغ ما بلغه غيرهم من أهداف الحياة بجده واجتهاده، فإنها قد تثير السخط في نفوسهم على ذويهم.. وقد تخلق لديهم السلبية التي تكتفى بالحقد على هؤلاء الآخرين الذين يلمع نجاحهم في الأفق، فيجسم - بمفهوم المخالفة - قصور الأبناء وعجزهم عن مجاراتهم في السباق.. وقد تخلق لديهم الإحساس بالإحباط والمرارة واليأس من أي تقدم، مادام «الآخرون» سيظلون دائما في عيون الآباء الأفضل والأنجح مهما بذلوا هم من جهد أو تكبدوا من عناء.. وقد تتفاعل هذه الأحاسيس في نفوس الأبناء فتسلمهم إلى الإحساس بالنقص تجاه القُرناءِ الناجحين.

أذكر حين كنت تلميذا بالمدرسة الابتدائية، أن أحد مدرسينا كان يغالي في اتباع هذا الأسلوب الخاطئ في حثنا على التفوق والالتزام بالسلوك القويم!.. وكنتُ حينذاك تلميذا بفصل «ثالثة ثان»، فكان مدرسنا لا يمل من عقد المقارنات الظالمة بين «خيبتنا الثقيلة» وبين نبوغ تلاميذ فصل «ثالثة أول» وتفوقهم، وبين «همجيتنا» وسلوكنا البدائي، وبين تحضر تلاميذ هذا الفصل السعيد ورقيهم وسلوكهم المهذب.

فإذا دخل علينا الفصل متأخرا بعض الوقت عن موعده لأنه كان مشغولاً مثلاً بالتسامر مع زملائه في غرفة المدرسين فسها عن موعد الحصة، ووجدنا كعادة التلاميذ حين يغيب عنهم مدرسهم يلهون ويعبثون ويصخبون، وقف بيننا للحظات صامتا و«متألما» ثم قال لنا بلهجة «درامية» حزينة إننا قد رسبنا للأسف في

«الاختبار» الذي أجراه لنا عن عمد، وأنه قد تعمد أن يتأخر عن دخول الفصل بعض الوقت ليرى كيف سيكون سلوكنا خلال غيابه، فإذا بنا كالعادة نتصرف بهمجية، في حين أنه حين أجرى مثل هذا «الاختبار» عامدا لتلاميذ «ثالثة أول» ودخل عليهم الفصل بعد 15 دقيقة من موعد الحصة، فوجد كل تلميذ منهم يجلس في أدب وهدوء في مقعده ويستذكر دروسه السابقة، أو يقرأ مقدما درس الحصة القادمة ليكون على إلمام به قبل أن يبدأ!

أما حين يوزع علينا كراريسنا بعد اختبار الشهر ومنا المتفوقون ومنا المتوسطون والراسبون ككل تلاميذ الدنيا فإنه لا يدع الفرصة تمضي دون تأنيب وتقريع لنا لأنه في حين ينجح منا مَن ينجح ويرسب من يرسب، فإنه يحار عند تصحيح كراريس «ثالثة أول» لأن كل التلاميذ متفوقون ويحصلون على الدرجات النهائية ولا فارق بين أولهم في الترتيب وآخرهم!

أما حين يدق الجرس مؤذنا بانتهاء اليوم الدراسي ونندفع كعادة الصغار للخروج من الفصل والفكاك من أسر المدرسة، فلم تكن تعوزه الفرصة حينذاك أيضا للمقارنة بين سلوكنا الهمجي هذا، وبين السلوك الراقي المتحضر لتلاميذ الفصل السعيد عند انتهاء اليوم الدراسي، وهم حين يدق جرس المدرسة يتمهلون في الخروج من فصلهم.. ويرتبون حقائبهم في هدوء.. ثم يودع كل منهم الآخر في أدب متمنيا له أوقاتا سعيدة «في ظل والديه».. ثم يخرج في وقار من المدرسة «آسفا» لانتهاء اليوم الدراسي ولما يشبع بعد من العلم والدروس!!

وهكذا في كل أوجه السلوك.. حتى استقر في مخيلتي حينذاك أن هؤلاء التلاميذ الأفذاذ من «طينة» أخرى غير طينة البشر، وأنهم ليسوا في الحقيقة سوى ملائكة صغار ترفرف بأجنحتها الرقيقة فوق بحر من الهمج هم نحن - ولا فخر - وأمثالنا.. وحتى استقر في وجداني أنه هيهات أن تبلغ مواطئ أقدامهم مهما كبحنا في أنفسنا رغبات الطفولة وحاولنا الالتزام بالسلوك القويم والاجتهاد في دروسنا، إلى أن غبت ذات مرة بضعة أيام عن الدراسة لوعكة صحية ألمت بي ورجعت للمدرسة مسلحا بالشهادة الطبية التي تبرر غيابي عنها، فلم يمض وقت طويل على بدء الحصة الأولى حتى جاء فراش المدرسة يستدعيني لمقابلة الناظر وتفسير انقطاعي عن الدراسة، واستأذنت في الخروج مع الفراش واصطحبت الشهادة الطبية معي، وعبرت في طريقي إلى مكتب الناظر بموقع فصل الملائكة القريب، فإذا بي أسمع قبل أن أقترب منه ضجيجا مخيفا صادرا عنه.. وتوقفت مذهولاً أمام باب الفصل المفتوح لأرى «الملائكة الأبرار» الذين لم يدخل إليهم مدرسهم بعد، وأفاجأ بهم وهم يتضاربون ويتعاركون ويتراشقون بالأقلام والأحبار والصواريخ الورقية، وقد اعتلى بعضهم مكاتبهم، ووقف البعض الآخر على حافة نافذة الفصل، وراح آخرون يدقون بعنف على أدراجهم المدرسية.. وملابسهم جميعا مهوشة، وشعورهم منكوشة، وملامح وجوههم لا تشي أبداً بالملائكية ولا بالمثالية التي رسمتها لهم في خيالي.. ولاحظ الفراش وقوفي ذاهلاً أمام فصل الملائكة غير الأبرار هؤلاء.. ولم يدرك بالطبع عمق صدمتي فيهم أو

في أحلامي العاجزة من قبل في أن أصل ذات يوم إلى أعتاب تفوقهم وسلوكهم الراقي وتهذيبهم.

وبلغت المفارقة قمتها حين أراد الفراش حتى على مواصلة السير، فدخل فصل التلاميذ الأفذاذ وصاح فيهم مؤنبًا ولائما ومهددا بإبلاغ الناظر عن سلوكهم الهمجي.. فانكمشوا خائفين والتزموا بعض الهدوء، ثم رجع الفراش منتصرا وسحبني من يدي إلى مكتب الناظر!

ولأيام عديدة بعدها، ظلت هذه الصورة تطاردني وتثير عجبي وألمي وتساؤلي: أهؤلاء إذن هم التلاميذ المثاليون الذين تخيلتهم كالملائكة ذوات الأجنحة؟ إنهم بشر كالبشر لهم أخطاؤهم ولهم إيجابياتهم مثلنا، فلماذا نَغَّصَ علينا أستاذنا حياتنا بعقد هذه المقارنة الكاذبة دائما بيننا وبينهم؟

ولم يسعفني عقلي وقتها لإدراك أن كل ما قاله لنا عنهم أستاذنا لم يكن سوى حيلة تربوية خاطئة من حيل المقارنة بالغير لاستثارة الحماس فينا للتفوق والالتزام، ولا لكي أفهم أن هذه الحيلة قد تجاوزت حدود الأمان بالمغالاة فيها، وبإرهاقنا بمطالبتنا با لا تسمح به طبيعة الطفولة من الالتزام الحديدي بالنظام والسلوك الملائكي الذي يصل إلى حد استذكار الدروس مقدما، ومغالبة الرغبة في الانطلاق من سجن المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي!

لكني شعرت رغم ذلك كله باللوم لأستاذنا الذي كاد يشعرنا من حيث لا يريد بالنقص تجاه قرنائنا وبالعجز عن إمكان بلوغنا حد السلوك المقبول في يوم من الأيام، ولا عجب في إحساسنا بذلك ما دام هناك دائما من يسبقنا على الطريق بأميال.. وهيهات أن نلحق به ذات يوم!

وهذا هو خطر اعتماد هذا الأسلوب الخاطئ في التشجيع على التفوق، والالتزام فالمقارنة بالغير.. ومحاولة إيجاد المثل الأعلى الذي يحتذيه الإنسان أسلوب سليم في التربية، ولكن بشرط عدم المغالاة فيه إلى حد مطالبة هذا الإنسان بما لا تسمح به طبيعة المرحلة التي يعيشها من عمره.. وبشرط أن يجيء ذلك عفويا وباعتدال، ومع الاستعداد للاعتراف بمميزات من نطالبه بمواصلة الاجتهاد والتفوق لبلوغ الأهداف، أما المغالاة في المقارنة بلا حساب وبلا مراعاة لاختلاف الظروف والقدرات فقد تجرنا إلى تضخيم فضائل الآخرين على حساب تقديرنا لفضائل أعزاءنا، وإلى المبالغة في تقدير تفوق الآخرين على حساب تقديرنا لجهد الأعزاء واجتهادهم، ولا عائد لمثل ذلك في النهاية سوى إشعار هؤلاء الأعزاء بالعجز والنقص واليأس من تحقيق أي تقدم حقيقي في الحياة!

فإذا كان التلميذ الشقي في الفيلم القديم قد أضحك أباه رغما عنه حين ذكره بما كان نابليون قد حققه في حياته حين كان في عمر أبيه فلقد أشعره أيضا من حيث لا يقصد بنوع من الحرج الإنساني لا ذنب للأب أو لأي إنسان آخر فيه، لأنه ليس كل البشر من العظماء والعباقرة، ولا هو من طبيعة الأشياء أن يصبحوا كلهم كذلك، فالنبوغ والعبقرية حالات فردية وستظل كذلك إلى نهاية الكون، وليس من الحكمة أن نحاول استثارة حماس شاب لأن يكون إنسانا ناجحا في حياته، فنذكره

مثلا بأن «الإسكندر الأكبر» قد أخضع الولايات اليونانية المعادية لبلده مقدونيا وخرج إلى فتوحاته الخارجية فهزم الفرس وفتح مصر وسوريا والعراق، ثم مات بالحمى وهو في طريقه إلى الهند وأفغانستان ولما يبلغ عمره بعد الثالثة والثلاثين!

ولا هو من المفيد أن نذكر مثل هذا الشاب بأن «رمسيس الثاني» كان على رأس جيوشه المظفرة التي يجول بها أراضي سوريا والعراق ذهابا وإيابا وهو في الثامنة عشرة من عمره، أو بأن «نابليون» قد بلغ رتبة الجنرال في الجيش الفرنسي وعمره 25 عاما، وعبر جبال الألب بجيوشه ليهزم النمساويين وعمره 29 عاما!

ولا أيضا أن نذكره بأن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، قد وضع «أسامة بن زيد» على رأس جيش المسلمين لفتح الشام وعمره 22 عاما، ولا بأن الرسول قد أمّر على مكة بعد الفتح شابًّا عمره 18 عاما اسمه «عتاب»، وفي مكة سادات قريش وأشراف العرب.

ناهيك عن معجزات باقي العباقرة والنابغين الآخرين، ابتداء من «موزار» الذي ألف أولى سيمفونياته وهو في التاسعة من عمره، إلى سيدنا «يوسف» الذي أدار ميزانية مصر بنجاح وهو في سن الشباب، إلى المليونير الأمريكي الشاب «بيل جيتس» عبقري الكمبيوتر الذي ترك الجامعة وعمره 20 عاما وتفرغ لابتكار برامج الكمبيوتر، وأسس شركته لبيع هذه البرامج، فإذا به يصبح «مليارديرا» في سن الواحدة والثلاثين، وإذا بهم يقولون عنه الآن إنه حين بلغ الثانية والأربعين كانت شركاته قد أصبحت تحقق كل يوم ربحا صافيا يزيد عن 10 ملايين دولار، وإنه حين يدخل فراشه لينام 8 ساعات كغيره من البشر ينهض من نومه في الصباح فيجد نفسه قد ربح أكثر من ثلاثة ملايين دولار بلا جهد منه سوى الاستغراق في الأحلام السعيدة!

وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون، فإذا كنا نروي قصص نجاحهم وعبقرياتهم من باب الإعجاب بهم، والتأكيد على قدرة الإنسان على تحقيق المعجزات إذا أحسن استخدام قدراته وملكاته وإبداعاته، وساعدته الظروف المحيطة به على إطلاق هذه القدرات، فإننا نقول أيضا إن العبقرية تظل في النهاية حالة فردية محكومة بظروفها التاريخية والاجتماعية، وليس من التربية السليمة أن نظلم أعزاءنا بالمقارنة الظالمة بينهم وبين أمثال هؤلاء العباقرة والناجحين كل يوم، ولا في كل مناسبة، لأن المقارنة العادلة إنما تكون بين أكفاء في القدرات وفي الظروف وفي الأهداف التي يسعون إليها.

ولكل إنسان بعد ذلك ظروفه وقدراته التي تؤهله لأن يحقق نجاحه في مجاله ويسعد بما حققه من خطوات كثيرة أو قليلة على الطريق الطويل.. ولا بأس بعد ذلك بأن يتطلع لما هو أفضل وأرفع، بشرط عدم المغالاة في الطموح الضاري الذي لا يراعي القدرات ويتعلق بالمستحيل، ويقتل الروح والعلاقات الإنسانية، ويفسد الأوقات بشرور الحقد على الناجحين، والغيرة المرضية السلبية منهم.

فلسوف يبقى هناك دائما ومهما فعلنا من هم أفضل منا وأنجح في كل المجالات، ولن يمنعنا ذلك من أن نعجب بنجاحهم وبعبقرياتهم، ولا من أن نرضى في الوقت نفسه عما حققناه نحن بكفاحنا، وعما أتاحته لنا ظروفنا وأقدارنا في الحياة.

فإذا كان الأمر كذلك.. فلا تذكرني كل لحظة من فضلك بما حققه الآخرون حين كانوا في نصف عمرى ولك على ألا أذكرك وألا أعايرك بما حققه العظماء والعباقرة حين كانوا أصغر منك.

وشكرا لك إذا التزمت بهذا «الاتفاق» العادل بيننا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحبـاء الحـياة

بعض الأشخاص تحب الحياة حين تعرفهم فتبهج بها، وتغني لها مع الشاعر الغنائي الأصيل المرحوم «محمد علي أحمد»:

غَنَّيْتُ للدنيا فمن ذا يُغَنِّي لي؟

وبعضهم تزهدك معرفتهم فيهم وفيها!

ولقد كان من حظي أن عرفتُ عددا غير قليل من هؤلاء الأشخاص الذين يضيئون الحياة بوجودهم فيها، وتنقص الدنيا الكثير من أنسها وبهجتها بغيابهم عنها. ومن هؤلاء كان صديقي الفنان الكبير الراحل «محمد عبد المنعم رخا» أو «رخا» كما كان معروفا لدى الجميع، وكما كان يوقع رسومه الكاريكاتورية الجميلة في أخبار اليوم وفى عشرات من الصحف والمجلات قبلها.

ولقد عرفتُ الفنان رخا في نقابة الصحفيين في أوائل الستينيات كنت مازلت محررا تحت التمرين بالأهرام.. وكان هو نجما ساطعا في سماء الصحافة المصرية، وفي قمة نضج السنين والشهرة، وبالرغم من ذلك فلم أشعر لحظة واحدة حين عرفته بفارق السن بيننا ولا بفارق المكانة والشهرة، فلقد كان فنانا بطبيعته وشديد التواضع وسريع الألفة للآخرين، يجتذبك إليه بسماحته وتواضعه وخفة ظله وسحر حديثه الممتع.

ومنذ اليوم الأول الذي عرفته فيه، فتنت بشخصيته الآسرة، وباستعداده الفطري للابتهاج بالحياة وارتشاف كل متعها البريئة وقدرته على إشراك الآخرين معه في الابتهاج بالحياة والاستمتاع بها.

فلقد كان محدثا بارعا لا تمل حديثه ولا تشعر معه بالزمن، وكان محبا للسهر لا يريد لليل أن ينقضي لكيلا يتفرق جمع الأحباب ويذهب كل منهم في طريق.

وعلى عكس «ليل الصب» الذي لا يعرف من يكابده «متى غده» في الموشح الأندلسي الشهير، كان ليل رخا سريع الانقضاء حتى ليشعر المرء بالأسف لسرعة انقضائه واضطراره لأن ينصرف عنه إلى قليل من النوم قبل أن يذهب إلى عمله.

وكان أكولا يتذوق الطعام الجيد ويعشقه ويطرب له، وينشد فيه الأناشيد! ويستدرجك لمشاركته الطعام ويغريك به حتى لتجد نفسك بعد قليل وقد انسقت معه إلى الشراهة في الطعام. كما كان ذواقة للطرب وصديقا قديها لأم كلثوم وزكريا أحمد وبيرم التونسي، ويحفظ ألحان زكريا وأشعار بيرم ويرويها، ويحكي عن أم كلثوم وزكريا وبيرم الحكايات الممتعة، وينسى نفسه أحيانا وهو يلعب الشطرنج أو الدومينو في النقابة، فيرفع صوته الجميل ببعض غنائهم فيفاجأ بصيحات الاستحسان من حوله تطلب المزيد!

وكان مفهومه للوقت مختلفا عن كثيرين غيره، فلقد آمن بأن الجلسة الطيبة والصحبة المريحة لا يعدلها شيء في الحياة، فإذا جاء إلى النقابة في الظهر وانعقدت منافسات الدومينو الرباعية مع أصحابه ومن حولهم المشجعون

والأنصار، قد يقضي النهار كله والمساء والليل في نفس الجلسة ونفس المكان، ولا بأس بذلك مادام الطعام يجيء حين يحتاج إليه، ومادامت فناجين القهوة السادة متاحة في كل وقت، ومادامت سجائره التي لا تكاد تنطفىء متوفرة، فإذا خلا المكان عليهِ وعلى «شلته» في الهزيع الأخير من الليل ولم يعد هناك بد من الانصراف رحمةً بحارس النقابة الذي يحتاج لإغلاق المبنى والاستسلام للنوم، خرج الأحباب إلى الشارع ورخا يتساءل: إلى أين نذهب؟

فمن كان متزوجا منهم أو ينتظره عمل في الصباح الباكر استأذن في العودة لبيته، وهيهات أن ينجح في ذلك قبل عناء طويل مع رخا الذي يذكره بيت عمر الخيام:

فما أطال النوم عمـرا

وما قصر في الأعمار طول السهر

ويؤكد له أن الأوقات البهيجة لا تعوض، ويروى عنه أنه كان في فترة من فترات حياته يرسم عشرين مجلة أسبوعية، ويعمل ليومين أو ثلاثة أحيانًا بغير نوم، لأنه كان «يستخسر» أن ينام إذا وجد الأحباب والأصحاب بعد نهار العمل الطويل، ويعوض قلة النوم في نهاية الأسبوع.

فمنا من كان يعجز عن مقاومة سحر رخا وندائه له بمواصلة السهر حتى الصباح، وقد كنتُ منهم في معظم الأيام، ومنا من كان يشفق على نفسه من ذلك ويتحين الفرص للإفلات أملا في بضع ساعات من النوم

ولقد روى لي رخا نفسه أنه كان يسهر ذات ليلة مع بيرم التونسي، فتنقلا طوال الليل بين عدة مقاه وجلسات، إلى أن وصلا ميدان «طلعت حرب» في الرابعة صباحا في طريقهما إلى مقهى يسهر للصباح بميدان التحرير، وبيرم التونسى يبدو له مستسلمًا وغير معترض، إلى أن فوجئ به يعدو مبتعدا عنه إلى شارع جانبي وهو يقول له ضاحكا:

تصبح على خير يا رخا!

والحق أنها كانت معادلة صعبة بالفعل لكل أصدقاء رخا أن يستجيبوا لإغراء السهر معه كل ليلة حتى الصباح، وبين أن ينجحوا في نفس الوقت في أداء التزاماتهم الضرورية تجاه العمل والأسرة وغير ذلك من الالتزامات، فالرجل لا يرجع إلى بيته إلا مع تباشير الصباح الأولى وبعد أن تستيقظ القاهرة من نومها وتمتلئ الشوارع بالساعين إلى أرزاقهم، وينام حتى الظهر ويؤدي عمله بأخبار اليوم في المساء حين يشاء، ولا يرتبط إلا برسم عدد محدودٍ من الصور في الصفحة الأخيرة من الصحيفة كل أسبوع بعد أن شبع عملاً وملأ الصحف والمجلات برسومه الساخرة على مدى ثلاثين عاما، وكان أول رسام كاريكاتير مصري يُمَصِّر فن الكاريكاتير بعد الفنانين الأجانب، وكنا نحن شبابا نبدأ رحلتنا العملية في الحياة ونحاول أن نثبت وجودنا ونحقق نجاحنا، لهذا فقد كان صعبا علينا بحق أن نتفرغ بكل طاقتنا للعمل، ونحن نسهر كل ليلة حتى الصباح مع هذا الفنان البوهيمي الساخر.

وأذكر أن رئيسي بالأهرام وقتها الأستاذ «صلاح هلال» قد حذرني من مواصلة السهر مع رخا كل يوم لكيلا يؤثر ذلك على عملي وصحتي، لافتا نظري إلى أنه هو نفسه يعرف سحر رخا وجلساته الممتعة، وقد انضم إليها في فترة من فترات عمره قبل أن «ينقذ» نفسه من إغرائها ويتفرغ للعمل!

لكني لم أكن أستطيع مقاومة نداء هذا الفنان العاشق للحياة، وكنت أعوض ارتباطي به بتقليل ساعات نومي، وبذل كل ما أستطيع من جهد في عملي خلال ساعات النهار التي نفترق فيها، وأتبع «خطته» المجربة من قبل في النوم طوال نهار وليل يوم الجمعة من كل أسبوع لتعويض الإجهاد وقلة النوم.

والحق أن أكثر ما كان يفتنني في شخصية المرحوم رخا هو روحه السمحة الطيبة التي لا تشوبها أية شائبة من الحقد والكراهية أو المرارة، بالرغم مما عاناه من ظلم عجيب في بعض مراحل حياته، وبالرغم من انكسار قلبه بمحنة صديقه الصدوق المرحوم الأستاذ «مصطفى أمين» حين حوكم في عهد «عبد الناصر» وسجن تسعة أعوام حتى أفرج- في عهد «أنور السادات»، وبافتقاده لصحبة صديقه الآخر المرحوم «علي أمين» بعد هجرته من مصر، بل وبالرغم أيضا من انكسار قلبه في مرحلة سابقة لمعرفتي به بوفاة أحب أبنائه إلى قلبه " عادل."

أما الظلم الذي تعرض له رخا في حياته فلقد كان بحق ظلما فادحا وقاسيا.

ففي فترة الانتشار في حياته التي كان يرسم فيها حوالي عشرين مجلة في مصر، كان يقدم رسومه لمجلة تسمى «المشهور»، أصدرها في الثلاثينيات النبيل «عباس حليم» رئيس حزب العمال وأحد أفراد الأسرة المالكة السابقة بمصر، وفي أحد الأيام أضرب عمال شركة الأتوبيس الأجنبية بالقاهرة " ثورنكروفت "، فاعتدى عليهم رجال الشرطة وألقى القبض عليهم، فرسم رخا على غلاف المجلة صورة يظهر فيها المدير الأجنبى للشركة وهو يطعن عاملاً في ظهره بخنجر، ورئيس الوزراء وقتها في ملابس رجل الشرطة يهرول ناحية العامل وينهره لأنه قد لوث ملابس الخواجة بدمه القذر!

وألقت النيابة القبض عليه بتهمة إهانة رئيس الوزراء، وقبل أن يتوجه إليها سلم للمجلة رسوم الأعداد التالية، وحققت معه النيابة في التهمة الموجهة إليه، ووعده رئيسها بالإفراج عنه بعد يومين، لكنه فوجئ بعد ذلك باستدعائه مرة أخرى للنيابة للتحقيق معه في تهمة أخرى لم تخطر له من قبل، فلقد صدر العدد الجديد من مجلة المشهور وعلى غلافه صورة رسمها رخا لمحرر يحمل أوراقا في يده، وعلى هذه الأوراق عبارات مكتوبة بخط دقيق تحمل سبابا فاحشا للملك «فؤاد» «ورئيس الوزراء» إسماعيل صدقي!

ولم يكن رخا هو الذي كتب هذه العبارات النابية، وإنما أضافها أحد عملاء الحكومة إلى الرسم ليوقع به ويتيح للحكومة فرصة محاكمته وسجنه وتكاتفت ظروف معاكسة عديدة على الرسام الشاب خلال محاكمته عن هذه «الجريمة» فلقد كان القاضي الذي سينظر قضيته رجلاً عادلاً من أعلام القضاء المصري، وصار وزيرا للعدل فيها بعد، هو المرحوم «ياسين أحمد باشا»، لكن رئيس النيابة

الذي كان يحقق في القضية مرض " فجأة "، فسحبت القضية من دائرة ياسين أحمد باشا وأحيلت إلى دائرة قاض آخر من أنصار نظام الحكم كان مرشحا لمنصب ناظر الخاصة الملكية. فما أن انتقلت القضية إلى دائرته حتى شفي رئيس النيابة على الفور من مرضه " السياسي " ورجع إلى عمله.

ونظر القاضي المرشح للمنصب الكبير قضية رخا، فلم يكن عادلاً مع المتهم ولا أمينا معه، فلقد اعترض رخا على خبير الخطوط الذي انتدبته المحكمة لسوابقه العديدة في رفض تقاريره والطعن فيها من الناحية الفنية، فرفض القاضي طلب المتهم، وطلب رخا خلال إحدى الجلسات أن تقوم المحكمة باستكتابه واستكتاب الحاضرين في الجلسة، وعرض خطوطهم على الخبير ليميز من بينها كاتب هذه العبارات النابية، فرفض القاضي طلب المتهم، ولو كان قد استجاب له قضي بسجنه، إذ كان الشخص الذي كتب تلك العبارات بين الحاضرين في نفس الجلسة، وكان من المحتمل أن يكتشف الخبير خطه لو كانت العدالة هي الهدف وليس الانتقام.

وهكذا تكاتفت كل الظروف ضده وصدر الحكم بسجنه أربع سنوات، وتأيد الحكم في الاستئناف لقلة خبرة المحامي الشاب الذي يدافع عنه ودخل رخا السجن في جريمة لم يرتكبها ولم تخطر له على بال، وكان في ذلك الوقت زوجا وأبا.. فأعطاه الله كما قال لي الصبر على ما تعرض له من ظلم، والقدرة على أن يضحك من نفسه ويضحك الأمن من حوله بالرغم من ذلك!

وقال لي فيما رواه من ذكريات عن هذه المحنة الأليمة في حياته: «لم أمض السنوات الأربع في سجني ألعن الظلم أو ألعن الرسام الذي دس على هذه الكلمات النابية ليعين الحكومة على الانتقام مني وإنما نسيت أنني مظلوم، وتألفت سريعا مع الحياة في السجن، ورحت أرسم شخصيات المساجين وضباط السجن والمأمور، وأضحك وأثير ضحكات المساجين والسّجانين من حولي، وعينني نائب المأمور وقتها «محمود طلعت» خطاطا بالسجن ليعفيني من الأعمال الأخرى المهينه داخل السجن، وطلب مني كتابة لوحات لغرف المأمور ونائبه والمكتبة وعنابر السجن، فكنت أكتب عبارة "حجرة المأمور " في أسبوع لأطيل من فترة خروجي من الزنزانة كل يوم من الصباح حتى المساء، وأكتب عبارة " نائب المأمور " في عشرة أيام، وكلمة " المستشفى" في ثلاثة أسابيع، ومحمود طلعت يبتسم فاهما وراضيا ومشجعا لى على أن أبطئ من عملي أكثر وأكثر!

ثم انضم إليّ في السجن الشاعر الفكاهي والأديب الراحل «عبد السلام شهاب» في جريمة رأي مماثلة، فحولنا السجن معا إلى «سيرك» تتعالى فيه الضحكات كل يوم، ويبتهج ضباط السجن بمشاهدة ومتابعة طرائفه!

ومضت هذه المحنة القاسية في حياته، وغادر السجن بعد أن فقد آخر ما كان قد ورثه عن أبيه من أرض زراعية باعتها الأسرة لتستعين بثمنها على حياتها خلال فترة سجنه.

ورجع رخا للحياة والسهر ورسم الكاريكاتير في الصحف والمجلات، وبعد ست سنوات من مغادرته السجن تقدم بأوراقه إلى نقابة الصحفيين لقيده في جدولها، فكان رئيس لجنة القيد هو المستشار «ياسين أحمد باشا» الذي كان مقدرا له أن ينظر قضيته في البداية، فرحب به المستشار بحرارة وأيد بحماس قيده في نقابة الصحفيين، ثم قال له إنه عندما بدأ يقرأ أوراق قضيته قبل سحبها من دائرته استوقف نظره أنه لم يستطع قراءة العبارات المنسوبة إليه في الرسم إلا بالعدسة المكبرة، في حين أن سكرتير رئيس الوزراء الذي قدم إلى النيابة البلاغ ضده قد أرسله للنيابة من مستشفى الدكتور «صبحي» للعيون بعد إجراء جراحة دقيقة في عينيه، فكيف استطاع قراءة هذه الحروف الصغيرة جدا؟ ولهذا فقد أحس أن القضية ملفقة ضده، وتمنى لو كان قد حقق ظروفها وفصل فيها!

ومن عجائب القدر أن الشخص الذي اكتشف رخا بعد عدة سنوات أنه هو الذي دس عليه هذه الكلمات النابية، وكان يطمح من وراء ذلك إلى أن يجني ثمرة خسته ودناءته من حكومة صدقي باشا، قد قلبت له الأيام ظهر المجن - كما يقولون - بأسرع مما كان يتوقع، وسقطت حكومة صدقي باشا بعد ذلك بشهور، وانفض عنه الأنصار والطامعون، ووجد هذا الشخص نفسه خلال فترة قصيرة بلا منصب في الحزب ولا عمل في صحيفته، وتدهورت أحواله للنهاية، فانصرف عن العمل الحزبي والصحفي ومرض مرضا شديدا كاد أن يعجزه عن الحركة، فكان في أخريات أيامه يتكفف بعض زملائه القدامى في الصحافة، وكان من بين من مدوا إليه أيديهم بالإحسان هذا الفنان البوهيمي الغريب رخا!

فلقد ذهب إليه ذات ليلة في نقابة الصحفيين وقال له باكيا: سامحني يا رخا!

فلم ينهره أو يعنفه، وإنما أشاح بوجهه عنه قائلاً له: إن الله العلي القدير هو وحده من يعفو ويصفح، ثم مد إليه يده بمنحة مالية أخذها الرجل وانصرف، ورخا يرقب مشيته الزاحفة وهيئته الرثة ويتعجب لتصاريف القدر!

وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} - [الآية 33 من سورة النحل].

ولم يكن ذلك وحده هي ما تعرض له الفنان رخا من محن في حياته، فلقد كابد الإحساس بالغربة النفسية في مرحلة سيطرة الماركسيين على صحف، أخبار اليوم التي يعمل بها، وكابد الإحساس " باليتم " الفني والصحفي حين سُجن مصطفى أمين وهاجر على أمين، ولم يسترد طمأنينته الهاربة إلا بعد الإفراج عن مصطفى أمين وعودة على أمين واكتمال صحبة الزمن القديم في حياته

أما ما عاناه في حياته من متاعب مالية بسبب إسرافه الشديد وعدم تقديره لقيمة المال أو احترامه له طوال حياته، فلقد كان كثيرا كثيرا، ويكفي أنه قد اضطر لبيع " فيلته " التي أقامها بكفاح السنين في مدينة الصحفيين ليسدد ديونه ويفي بالتزاماته تجاه أبنائه، فباعها عام 1973 ب- 23ألف جنيه فقط لا غير، ولم تمض سوى شهور حتى وقعت حرب أكتوبر واشتعلت أسعار الأرض والعقارات بمصر، فإذا بهذه الفيلا نفسها تعرض للبيع بثمن يتخطى المليون بعد ثلاث أو أربع سنوات

فقط من بيعه لها! ولعل ثمنها الآن يزيد على بضعة ملايين. ومع ذلك فلقد عاش حياته ضاحكا متسامحا مع الحياة.

وفي صباح يوم 8 أبريل عام 1989 توقف قلب هذا الفنان العاشق للحياة عن النبض، لكن الحديث عنه لا ينتهي ولن يتوقف، ولعلي أرجع إليه مرة أخرى إذا أذنت لي بذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غريب.. في بيتي!

أعاني من حالة «انعدام وزن» أرجو ألا تستمر معي طويلا!

فلقد شهدت حياتي في الفترة الأخيرة تغيرا دراماتيكيا هامًا هو تغير مكان إقامتي من مسكن عشت فيه ثلاثين عاما إلى مسكن جديد انتقلت إليه منذ أيام، ومن «جوار» عرفته وألفته إلى جوار غريب عني لم آلفه بعد.. ولم يألفني.

فبعد تردد طويل استغرق بضع سنوات، حزمت أمري أخيرا وقررتُ الانتقال إلى مسكن أوسع من مسكني القديم وأكثر تلبية لاحتياجات أسرتي، ونفذت هذا القرار «بشجاعة» نفسية أرجو ألا تتخلى عني في أية لحظة فأقفل راجعا إلى بيتي القديم!

ولكي تدرك عمق هذه «الشجاعة» التي افتقدتها طويلاً، سأقول لك فقط إنني كنت أفكر في تغيير مسكني والانتقال منه إلى مسكن أوسع منذ أكثر من عشر سنوات كاملة، أي منذ كبر الأبناء وضاق بهم المسكن ولم يعد يلبي احتياجاتهم وتطلعاتهم المشروعة، لكنني في كل مرة أقدمتُ فيها على محاولة تغيير المسكن باءت محاولتي بالفشل لأسباب «عملية» أو «نفسية»، فأما الأسباب العملية فهي أن أكتشف مثلاً أن المسكن الجديد الذي أوشكت على الارتباط بشأنه ليس أفضل كثيرا من مسكني القديم، أو أن أكتشف فيه عيوبا تقنعني بالانصراف عنه ترقبا لفرصة أفضل، أو أن أضيق بشروط مالكه وأرى فيها تعنتا لا مبرر له، إلى آخر هذه الأسباب العملية المقبولة.

أما الأسباب النفسية، وهي التي تكمن غالبا وراء تضخيمي للمبررات العملية لرفض المسكن الجديد، فهي أني قد ارتبطت بمسكني القديم هذا نفسيا ومعنويا منذ سنوات طويلة، ووثقت الأيام والأعوام روابطي به وبالجوار كله، حتى لم أعد أتخيل لنفسي "حياة أخرى" بعيدة عنه، فعرفت فيه «البشر» من جيراني وأصحاب المحال التجارية التي تقع أسفله وإلى جواره وعرفوني، وتوثقت الروابط بيننا حتى لم أعد في سنواتي الأخيرة بهذا المسكن أحتاج لتقديم نفسي إلى أحد عند الاحتياج إلى أية خدمة من الخدمات المعيشية المألوفة، وإنما يكفي لكي أحصل عليها أن أتصل تليفونيا بمن يستطيع أداءها لي من أصحاب المحال المجاورة لتتم على الفور، وليس بين الخيرين بعد ذلك حساب بل لعلي أجادل من أدى لي هذه الخدمة طويلاً لكي يريحني ويحدد أتعابه، فيرفض غالبا ويتركني حائرا في تقديرها، فإذا استجاب للإلحاح وحدد مبلغا معينا لهذه الأتعاب، وجدتني أقدم له أكثر مما طلب لثقتي في أنه قد جاملني بتخفيض الأجر بعض الشيء. أما سكان العمارة التي أقمت فيها 29 عاما كاملة فقد عرفت معظمهم وشاركتهم مناسباتهم الحزينة والسعيدة على السواء، وألفت أصواتهم التي تتسلل إليّ عبر نوافذ شقتي وخبرتُ منها بعض أحوالهم، كما خبروا هم كذلك بعض أحوالي، وحين أقمتُ وحيدا في مسكني بهذه العبارة قبل الزواج وحتى بعد أن تزوجت فيه وأنجبت الأبناء، فلقد صحوت أكثر من مرة على رنين جرس الشقة في السابعة صباحا وفتحت الباب مستطلعا، فإذا بأحد جيراني الساعين إلى عملهم في هذا

الوقت المبكر من الصباح قد لاحظ أثناء هبوطه درج السلم أننى قد نسيت مفتاح الشقة في الباب من الخارج حين رجعت مجهدا قرب الفجر، فيحييني الجار الطيب تحية الصباح مبتسما وهو يشير إلى المفتاح في قفل الباب، وأشكره بحرارة وأسحب المفتاح وأرجع إلى نومي.

فأما جارتي الأقرب إلى مسكني فقد تحولت علاقة الجوار معها إلى صداقة عائلية حميمة منذ سنوات طويلة، وما من مرة اشترت لنفسها شيئا رأته جميلاً في الأسواق وهي في طريق عودتها من مدرستها التي تعمل مديرة لها إلا واشترت لنا مثله بغير طلب منا، لثقتها في أننا سنبتهج لذلك، وسوف نسعد بالاستفادة من خبرتها الثمينة بالأسواق والاحتياجات المنزلية، وقد أنقذتني هذه الصداقة العائلية ذات يوم من مأزق كاد يفسد على إحدى إجازاتنا العائلية القليلة. فلقد اصطحبتُ أسرتي ذات مرة إلى قرية سياحية بالإسماعيلية لقضاء إجازة العيد، وخططت أن يرجع إلى السائق في هذه القرية بعد يومين ليتسلم مني باب بريد الجمعة بعد أن أكتبه للأهرام ويتوجه به إلى المطبعة، واستقررنا في الشاليه الصغير الذي نزلنا به، وبدأنا فتح الحقائب، فإذا بي أكتشف أنني قد نسيت ملف بريد الجمعة الذي سأكتب الباب منه على مكتبي بالشقة، وأصبح الحل الوحيد لهذا المأزق هو العودة للقاهرة لكتابة الباب الأسبوعي وضياع يومين من إجازتي على الأقل. فاكتأبت لذلك كثيرا وبدأت أفكر في العودة للقاهرة بنفس السيارة التي حملتنا إلى هذا المكان، فإذا بهذه الصداقة العائلية الحميمة تتدخل فجأة لكيلا تحرمني من الإجازة العائلية، وإذا بي أكتشف في هذه اللحظة فقط أن زوجتي تترك منذ سنوات طويلة نسخة من مفتاح شقتنا لدى هذه الجارة الفاضلة تحسبا للمواقف الطارئة، كما أن هذه الجارة تترك أيضا نسخة من مفتاح شقتها لدينا لمواجهة هذه المواقف، فاتصلت زوجتي بصديقتها وطلبت منها دخول الشقة، والبحث عن الملفِ المطلوب إلى أن يأتي إليها السائق، وقبل غروب الشمس كان قد رجع إلينا حاملاً الملف المفقود، ونعمت بإجازتي كما خططت لها من قبل، وفهمت في ذلك اليوم فقط سر هذا المفتاح الغريب الذي كنت أراه متدليا من مكان تعليق المفاتيح بجوار الباب منذ سنوات ولا أجد له تفسيرا! وعرفت أنه مفتاح جارتنا هذه، وأننا نقوم عنها خلال غيابها في عملها - بعد أن خلا عليها المسكن. بزواج بناتها - بفتح الشقة في غيابها لقارئ عداد الكهرباء وعداد الغاز.

وبدرجة أقل تفاوتا وثقت العشرة وطول الجوار بيني وبين كثيرين من سكان العمارة، فعرفت منهم الطبيبة الشابة، والأم الرءوم لطفلين صغيرين كانا أول من عرف ابني من أصدقاء الطفولة، ولمستُ حنانها الزائد بهما ونفورها الشديد من استخدام الشدة معهما في أي شيء ولو من باب التأديب المشروع، حتى تساءل البعض عن «حكمة» هذا التساهل والحنان الزائد بها، إلى أن فوجئ الجميع بعد بضعة أعوام برحيلها عن الحياة بالمرض العضال وهي في عنفوان شبابها، و «فهموا» لماذا آثرت ألا تأخذ طفليها بالشدة وهي التي كانت تحس إحساسًا باطنيًا عميقا بأنها سوف تفارقهما في القريب العاجل.. رحمها الله وأحسن مثوبتها.

وعرفت كذلك هذه الفتاة الأجنبية التي كنت أراها تهبط الدرج من الدور السابع بنشاط غريب وهي ترتدي فستانا محتشما وتبادر من تلقاه في الطريق بتحيته بعربية مكسرة قائلة: السلام «أليكم»، واكتشفتُ زوجة ألمانية لشاب من الجيران تزوجها في ألمانيا حين هاجر إليها في السبعينات ورجع بها قبل سنوات، فأخلت له والدته مسكنها بالعمارة، وانتقلت هي للإقامة مع ابنتها المتزوجة، واعتدت كلما رأيتها أن أحييها بود وترحيب، ثم لم يمض وقت طويل حتى رأيتها ترتدي الطرحة البيضاء حول شعرها ووجهها فتبدو في صورة ملائكية جميلة، وتناقل السكان خبر اعتناقها الإسلام وانتظامها الشديد في الصلاة والصيام، ومجاهدتها الدائبة مع اللغة العربية لكي تقرأ القرآن الكريم بلغته العربية وتفهمه.

ثم لم تمض سنوات أخرى حتى رحل زوجها عن الحياة وهو في عنفوان صحته، فنهضت لتحمل مسؤوليتها عن ابنيها بشجاعة، وعملت بمساعدة السفارة الألمانية في عمل ملائم، وأشاد الجيران بالتزامها الديني والأخلاقي وحسن تربيتها لابنيها، ووفائها لذكرى زوجها ولأسرته.

كما عرفت أيضا ضابط الجيش الكبير الذي يقيم بإحدى شقق العمارة، ويسعد بزوجته الفاضلة وأبنائه الثلاثة المهذبين، وكنتُ أراه خارجا مع أسرته في الإجازات أو عائدا معها من إحدى الزيارات العائلية سعيدا مبتهجا راضيا عن نفسه وأسرته وحياته، فإذا بالأقدار تتجهم له فجأة وينكسر قلبه بمصرع أحد ابنيه على طريق القاهرة - بورسعيد في حادث سيارة ركبها مع بعض أصدقائه لشراء بعض الملابس المستوردة من السوق الحرة، وكان مقررا أن يصطحب معه شقيقه الأصغر إلى نفس هذه الرحلة المشؤومة، لكنه تراجع عن السفر معه في اللحظة الأخيرة فكتبت له النجاة، وحين دخلت مسكنه لأول مرة معزيا ومواسيًا رأيته حطاما يحاول التماسك والتصبر بجهد جهيد.

ثم دارت الأيام دورتها وكبر الابن الأصغر وأصبح ضابط شرطة، وكبرت الابنة الأخرى وتزوجت، وكنت في مسكني وحيدا صباح أحد أيام الجمعة وأسرتي في بيت الأهل، فإذا بجرس الباب يرن، وأجد أمامي هذا الابن الشاب نفسه دامع العين يرجوني في خجل مساعدته في نشر نعي والده الذي لاقى وجه ربه قبل ساعات بالأهرام، فدعوته للدخول، واتصلت بالأهرام وأمليت نعى الوالد الراحل، وقدمتُ للابن الحزين تعزيتي وزرت مسكنه مواسيًا ومعزيا.

وشهدت أيضا في هذه العمارة دورة الزمن بمن فيها، فرأيت الطفلة التي كنت أداعبها على درج السلم كلما التقيت بها تتحول مع الأيام إلى فتاة باهرة الجمال يتنافس الشباب على جذب اهتمامها، ثم لم ألبث أن سمعت ذات يوم ضجيج الفرح وأصوات الغناء والموسيقى تتعالى من شقتها، وأدركت أن سهام الحب قد حسمت المنافسة حولها لصالح شاب كثيرا ما رأيته يتسلل في المساء إلى الدور الذي تقيم فيه ويدق باب شقة هذه الفتاة برفق، فتفتح هي له «شراعة» الباب القديم في حذر وتتبادل معه الهمس والكلام خلسة من أبويها، فإذا استشعرا شيئا مريبًا سارعت بغلق الشراعة، وهرول الشاب مبتعدا. وفي إحدى هرولاته هذه اصطدم بي ثم سارع بالفرار معتذرا!!

كما شهدت كذلك الفتاة الأخرى الجميلة التي كانت تشكو من قسوة أبيها في معاملتها، ورثيت لحالها طويلاً وتعاطفت معها تعاطفا صامتا، إلى أن كنتُ في مسكني ذات صباح، فإذا بالباب يدق بشدة، وإذا بشقيقها الأصغر يهتف بي مفزوعا: الحق فلانة يا أنكل انتحرت! فأهرول معه بملابس البيت منزعجا إلى مسكنها وأجدهما وحيدين في غياب أبويها، وقد ابتلعت الفتاة الجميلة بضعة أقراص من الإسبرين، فلم أفكر في الاتصال بالإسعاف أو طلب الطبيب تجنبا للفضيحة العائلية، وإدراكا مني لعدم جدية محاولة الانتحار، وإنما اتجهت إلى المطبخ وأذبتُ كمية كبيرة من ملح الطعام في كوب كبير وأعطيته للفتاة لتشربه على جرعات وتبدأ في إفراغ معدتها، وأوصيت أختها بأن تصنع لها شرابا ساخنا ورجعت إلى مسكني مطمئناً لانتهاء الأزمة. والتقيت بالأم بعد ذلك بالصدفة على درج السلم فلمحت العرفان الصامت في نظرة عينيها، وسمعت كلمة شكر خافتة منها.. أما أبوها، فألتقي به فلا ألمس منه شكرا ولا عرفانا، وأفهم من ذلك أن الأم والابنتين قد أخفين عنه القصة كلها تجنبا لمضاعفة المشكلات مع أب مزعج مثله!

كما شهدت أيضا الغادة الهيفاء التي كانت تنزل من سيارة يقودها شاب أمام باب العمارة لترجع إلى مسكنها، فيرقبها بواب العمارة في ارتياب وشك ويتجهم في وجهها ويعاملها بشيء من الازدراء إعلانا لرفضه هذا السلوك، وتتحمل هي نظراته القاسية لفترة من الزمن إلى أن يجيء يوم ويدخل معها هذا الشاب نفسه باب العمارة لطلب يدها من أبيها، فيراجع البواب نفسه في طريقة معاملته لها، ويرحب بالشاب بحرارة ويصطحبه في المصعد إلى شقة الأسرة مبتهجا، ثم رأيت هذه الغادة الهيفاء نفسها وقد استقرت مع زوجها في مسكن أمها تظهر عليها علامات الزمن تدريجيا، فينتفخ بطنها مرتين أو ثلاثا، ويختفي القوام الرشيق ويحل محله قوام برميلي يعلن تغير الأحوال وانتهاء مرحلة الرشاقة والريجيم للأبد.

أما أصحاب المحال التجارية التي تقع تحت نفس العمارة فلقد تشابكت روابطي بهم، وعمقت الأيام من صداقتي لهم وكثرت مجاملاتهم لي، وألفتُ أن أحييهم ويحيوني في الخروج والدخول، وأنستُ بصحبتهم وودهم الصادق، حتى لقد وجدتني أشعر شعورا غامضا بالذنب تجاههم وأنا أمضي في مشروع إعداد الشقة الجديدة للسكن كأنما أرتكب بذلك «خيانة» غير مفهومة لصداقتهم!

وبسبب هذا الشعور الغامض نفسه فشلت إحدى محاولاتي السابقة للانتقال إلى سكن آخر منذ بضع سنوات، وبعد أن عاينت المسكن الجديد وأعجبت به واتفقت مع صاحبته على توقيع العقد معها خلال يومين، شاكرا للأديبه الفاضلة التي دلتني عليه جهدها المخلص، رجعت إلى مسكني مبتهجا بتوفيقي في العثور على السكن المطلوب، فما أن نزلت من السيارة وحييت بواب العمارة وبعض أصحاب المحال التجارية الواقفين على الطوار وحيوني، وتبادلنا بعض الكلمات العابرة، حتى وجدت ابتهاجي السابق يتبدد ويحل محله إحساس آخر بالشجن والاكتئاب، وليومين كاملين صاحبني هذا الإحساس الغامض في الرواح والمجيء ولم يهنأ

لى نوم ولا صحو، وفي اليوم الثالث وجدتني أتصل بالأديبة الفاضلة واسطة الخير في الارتباط بالسكن الجديد، وأعتذر لها عن عدم قدرتي على مغادرة هذا الجوار، وأنهى إليها تفضيلي لأن أظل متعلقا بالأمل المستحيل في أن أجد بغيتي في المسكن الأوسع على بعد أمتار قليلة من مسكني القديم، وحبذا لو كان في نفس العمارة التي أقيم بها!.. وفشل هذا المشروع كما فشلت مشروعات أخرى مشابهة، إلى أن أذن الله لي أخيرا باستجماع شجاعتي النفسية والإقدام على إعداد مسكن جديد لا يبعد كثيرا عن المسكن السابق والانتقال إليه، فإن قلتُ لك إنني أمضيت الأيام الأولى فيه وأنا لا أشعر بأنني مقيم في بيتي ومستقري الآمن كما يشعر كل إنسان، وإنما في «فندق» صغير انتقلتُ إليه مع أسرتي لأسباب قهرية ولن تطول إقامتنا به، ثم نرجع متلهفين إلى مسكننا القديم وجيراننا الأحباء وحياتنا الأصلية، فلستُ أبالغ في ذلك ولا عجب فيما أقول لك ولا غرابة، فإنما يسعد الإنسان بالإنسان وليس بالمكان، فادع لي الله ألا تطول «غربتي» في هذا المسكن الجديد البارد، حيث لا أعرف أحدا ولا يعرفني أحد، ولا تربطني بأحد أية روابط إنسانية حتى الآن.. وادع لي الله أيضا ألا تطول حالة انعدامٍ الوزن التي أعاني منها الآن كثيرا، ولك مني محبتي وعرفاني وشكري جزاء وفاقا لذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القرارات الأخيرة

قرأت عن مرضه وقرب سفره للعلاج في فرنسا وأنا بباريس، فاعتزمت زيارته في المستشفى حين يجيء.

ترقبت وصوله، ثم توجهت إليه برفقة أحد زملائي بمكتب الأهرام بباريس والقنصل المصري العام بالعاصمة الفرنسية. توقفت خلال الطريق أمام محل للزهور، وطلبت من البائعة باقة ملائمة لزيارة مريض بالمستشفى، فراحت تجمع بعض نباتات الزينة وتنسقها في باقة صغيرة. طلبت منها أن تضيف إليها بعض الورود الفواحة، فقالت لي إنهم في المستشفيات لا يفضلون الزهور ذات الرائحة، وإنما الزهور ذات الألوان المبهجة فقط، فاحترمت «الخبرة» الفرنسية في هذا الشأن وسلمت لها باختيارها.

توقفت السيارة أمام مستشفى «أوتيل ديو ي»، فتجدد عجبي لاسم هذا المستشفى العريق الذي زرته من قبل أكثر من مرة، إذ لا معنى لكلمة «أوتيل» سوى الفندق أو المقر.. ولا معنى لكلمة «ديوى» في الفرنسية سوى الله!.. فهل تكون الترجمة الحرفية لاسم هذا الفندق «فندق الله» كما نقول نحن عن المسجد إنه بيت الله.. وليس لله عز وجل بيت ولا فندق لأن الكون كله بيته وفندقه؟

تلفت حولي قبل أن أدخل المستشفى، فشاهدت كنيسة نوتردام الشهيرة التي تجري أعمال تجديدها ببطء شديد وعناية كبيرة منذ حوالي عامين، وراقبت التجمع الدائم للسياح في الساحة التي تطل عليها الكنيسة، وتذكرت أنني كثيرا ما شاركتهم زيارة هذه الكنيسة الأثرية والتسكع أمامها.

ترتبط الأماكن عندي في كثير من الأحيان بالأعمال الأدبية الشهيرة التي قرأتها عنها قبل أن أراها، وبالأدباء الذين كتبوها.. ولهذا فلم يحدث ذات مرة أن جئت إلى هذا المكان بغير أن أتذكر اسم الروائي الفرنسي الكبير «فيكتور هوجو» وروايته الشهيرة «أحدب نوتردام»، كما لم آت يوما إليها إلا ورفعت بصري إلى برج الكنيسة شاهق الارتفاع.. فيخيل إليّ أنني أرى «كازيمودو» الأحدب المشوه الأصم قارع أجراس هذه الكنيسة يدق أجراسها، أو يقاتل بضراوة فوق أسوارها من يحاولون اقتحام الكنيسة لإخراج الغجرية الجميلة « أزميرالدا» منها، وتنفيذ حكم الإعدام شنقا فيها، حتى إذا نجح «كازيمودو» في قتل عدد كبير منهم وإبعادهم عن أسوار الكنيسة، رجع إلى الغرفة التي أخفاها فيها فلم يجدها، لأن الأسقف العاشق «كلود فروللو» الذي رفضته أزميرالدا قد تحايل لإخراجها من الكنيسة وتسليمها لمن نفذوا فيها حكم الإعدام، فلا يتمالك كازيمودو نفسه ولا يتردد حين أدرك الدور الذي قام به سيده الأسقف في أن يطوح به من فوق أسوار الكنيسة إلى هذه الساحة التي نقف أمامها الآن، ثم يختفي الأحدب المشوه الذي حمل أعظم الحب لهذه الفتاة الغجرية منذ عطفت عليه وهو معلق في آلة التعذيب بأحد الميادين، وقدمت له جرعة الماء مع أنه كان يعاقب بتهمة محاولة اختطافها، تنفيذا لأمر سيده الأسقف.

وبعد سنوات طويلة عثروا على جثمانه في قبر أزميرالدا الجميلة ووجدوا عظمة عنقه سليمة، مما يقطع بأنه لم يشنق بأمر السلطات، وإنما سعى بقدميه إلى قبر محبوبته، ورقد إلى جوارها باختياره، حتى مات إلى جوارا من يحب!

انتزعت نفسي من تأملاتي واتجهنا إلى باب المستشفى، فتذكرت أن آخر زيارة لي لهذا المستشفى كانت لزيارة الكاتب الصحفى الأستاذ «مفيد فوزي» حين ألمت به وعكة صحية شديدة منذ سنوات يا إلهي.. ما أكثر المرضى من الكتاب والأصدقاء الذين أزورهم بمستشفيات باريس كلما جئت إليها في زيارة.. فما من مرة جئت فيها إلى باريس إلا وعلمت بوجود زميل أو صديق في رحلة علاج، فأسعى إليه حيث يكون وأقضي معه بعض الوقت!

يزداد عجبي وإعجابي كلما استرجعت في مخيلتي هذا الحديث القدسي الفريد الذي رواه أبو هريرة فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا بن آدم، مرضتُ فلم تعدني! قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده!

فأي معنى فريد في هذه الكلمات الطاهرة «مرضت فلم تعدني»!.. وأي قيم أخلاقية سامية! لقد قال العلماء في تفسير هذا الحديث القدسي: إن الله سبحانه وتعالى قد نسب المرض إلى ذاته العلية، لكن المراد به هو العبد.. تشريفا للعبد المريض وتقريبا له وإن معنى «وجدتني عنده» هو: وجدت ثوابي وكرامتي في حضرة هذا المريض!

صعدنا السلم إلى الدور الأول، ولاحظت كالعادة نظافة ردهات المستشفى وهدوئه، و «اللوحة» الجميلة من الزهور الملونة التي تتوسط فناءه الداخلي. طرقنا باب الغرفة، فجاءنا صوته يدعونا للدخول دخلنا إليه فوجدناه وحيدا في فراشه يتطلع إلينا مبتسما ومرحبا بنفس ملامح الوجه الروماني المميز.. ونفس النظرة الذكية اللامعة في عينيه!

فمتى بدأت علاقتي بهذا الرجل الذي أزوره الآن في مستشفى أوتيل ديوى؟

أذكر أنني كنتُ تلميذا بالسنة الأولى الثانوية، حين خطر لأحد تلاميذ المدرسة أن يبدأ مشروعا تجاريا «جريئا» في وقته، هو بيع الصحف والمجلات داخل فناء المدرسة قبل الدراسة وفي وقت الفسحة، وسمح له ناظر المدرسة بذلك تقديرا لظروفه، فكنت أشتري منه «الأهرام» لأقرأه بين الحصص، مع أن أبي يشتريه كل يوم، وواظبتُ على هذه العادة كل أيام الأسبوع، ماعدا يوما واحدا كل أسبوع هو يوم الثلاثاء، فكنت أشتري «الأخبار» بدلاً من «الأهرام» ولاحظ ذلك بائع الصحف التلميذ وسألني عن السبب، فأجبته: لأن «أنيس منصور» يكتب في هذا اليوم يوميات الأخبار في صفحتها الأخيرة!

وهكذا ارتبط عندي يوم الثلاثاء - ولسنوات طويلة - بمقال أنيس منصور ولذعاته الأدبية.. وسياحاته الفكرية.. وأسلوبه الرشيق الجميل، كما ارتبط من قبل يوم

الثلاثاء عند عدد كبير من أدباء الجيل الماضي بموعد صالون الأديبة اللبنانية «مي زيادة»، وقد كانوا يتطلعون إليه وينتظرونه بشوق ولهفة حتى قال الشاعر اللغوي الأديب «حفني ناصف»:

إنْ لَمْ أُمتِّع بمَيٍّ ناظريَّ غدًا

أَنْكرتُ صُبْحك يا يوم الثُّلاثاءِ

أما كتبه ومقالاته الأدبية الأخرى، فلقد قرأت منها الكثير، و«عرفت» منها أيضا الكثير، ومن أحبها إلى قلبي «كانت لنا أيام في صالون العقاد» و «الخالدون مائة، أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم»، وكتاب صغير قديم يعبر فيه عن حيرته الأبدية وغربته النفسية كأديب، فسماه «نحن أولاد الغجر».

وبفضل كتابه القيم عن العقاد ازددت حبا للعقاد وفهما لشخصيته وأدبه ومن هذا الكتاب بالذات فهمت معنى رمز مدينة روما وهو «ذئبة ترضعٍ أخوين»، ووجدتني حين زرت العاصمة الإيطالية لأول مرة أشرحه لمن معي نقلاً عن كتاب أنيس منصور.. وكيف أنه إشارة لقصة أو أسطورة الأخوين «رومولوس» و «ريموس» اللذين طردهما عمهما من البيت في القرن الثامن قبل الميلاد، فذهبا إلى الغابة واحتضنتهما ذئبة وأرضعتهما، وعندما اهتدى إليهما الناس أعادوهما إلى الحياة العادية فأقاما مدينة روما!

وعن ترجمته الأدبية الجميلة قرأت لأول مرة أعمال الكاتب المسرحي السويسري «ديرنيات»، وقرأت عن «ألبرتو مورافيا» أديب إيطاليا العظيم، وغيرهما كثيرين وكثيرين، وتعاملت معه طوال ما يقرب من أربعين عاما كأديب ومفكر فقط، ورفضت عامدا أن أتعامل معه ككاتب سياسي، لكيلا يفسد على اختلاف الآراء حول المواقف والاتجاهات السياسية صلتي الفكرية به، بل وتمنيت لو لم يكن قد اقترب أصلا من بحر السياسة المضطرب دائما بالعواصف والأنواء واختلاف الآراء وتعارضها، لأن الأديب فوق الخلاف، أما الكاتب السياسي فهو في بؤرة الخلاف والاتفاق وصراع الآراء، وقد تتفق مع آرائه اليوم وتختلف غدًا، وهكذا.

سألت الأستاذ أنيس منصور كيف أصيب بالجلطة في قدمه وهو الذي يتبع في حياته نظاما صحيا دقيقا، ويحرص على المشي لمسافات طويلة، وكان يصاحب الرئيس «السادات» في ممارسته لرياضة المشي كل يوم لمدة ساعتين؟ فأجابني بأنه قد توقف للأسف عن ممارسة المشي منذ فترة غير قصيرة، وأنه قد أصيب بالجلطة لأنه انشغل بكتابة كتاب ضخم يروي فيه سيرته الذاتية، فراح يجلس إلى مكتبه بلا حراك لأكثر من 12 ساعة كل يوم، حتى فوجيء ذات يوم بتورم قدمه، وبدأ العلاج.. فتبين أنه قد أصيب بجلطة فيها، وأن هذه الجلطة قد تحركت داخل أوردة الجسم حتى بلغت الرئة. وخضع للعلاج المكثف في مصر وتم تفتيت الجلطة بالفعل، لكن الأطباء نصحوه بعد مرحلة معينة من العلاج بالسفر إلى باريس ليعالج تحت إشراف البروفيسور«روشفور» أكبر أطباء الصدر في فرنسا، وطمأنه الطبيب الفرنسي الكبير إلى إمكانية محاصرة «شظايا» هذه الجلطة داخل الجسم ومنعها من الانتقال إلى أماكن أخرى أكثر حساسية، لكن الأمر يتطلب منه

الراحة التامة وعدم الحركة لفترة محددة، وهو كما يقول عن نفسه مريض مثالي فيما يتعلق بتناول الأدوية ومواعيدها ونظام الغذاء، أما فيما يتعلق بعدم الحركة فهو مريض مشاكس، لكنه يحاول قدر جهده الالتزام بتعليمات الطبيب بهذا الشأن وألححنا عليه بضرورة الانصياع التام لتعليمات الأطباء لكي يكتب له الله الشفاء ويرجع إلى بلده وأهله وقرائه.. وقلت له إن التمرد الفكري يمكن أن يكون أمرا مفهوما من أديب مثله، لكن التمرد على تعليمات الأطباء أمر لا يمكن قبوله من مفكر يعي جيدا ماذا يعني ذلك من خطر عليه، ووعدنا بالالتزام وأرجو أن يفي بوعده.

فهل اختلفت شخصية «المريض» أنيس منصور عن شخصية «الأديب والمفكر والساخر اللاذع» أنيس منصور؟

لم أشعر بذلك لحظة واحدة خلال زيارتي له، فلقد انطلق «المحدث البارع» المعهود يتحدث ويعلق.. وينتقد ويلذع بطرف لسانه كما يلذع بطرف قلمه حين يريد، وروى لنا ذكريات سياسية وأدبية ضاحكة كثيرة.. وأضحكنا كثيرا وإن لم يضحك هو إلا قليلا.. وكانت «قمة» حكاياته السياسية اللاذعة ما رواه لنا بمناسبة زيارة دبلوماسي مصري كبير له بالمستشفى قبل مجيئنا بساعات، فروى لنا أنه صاحبَهُ منذ عشرين سنة إلى زيارة دولة إفريقية يحكمها جنرال من جنرالات الانقلابات العسكرية في إفريقيا، وكانت هناك جفوة مؤقتة بين البلدين بسبب مشكلة بروتوكول صغيرة، فقرر المسؤول الدبلوماسي المصري يقوم بزيارة ترضية لهذا البلد الإفريقي واصطحب معه خلال الزيارة صديقه الأديب أنيس منصور، وتوجها معا لمقابلة هذا «الزعيم»، فكان رجاء الدبلوماسي لصديقه الأديب هو ألا يضحك مما قد يسمعه خلال اللقاء لكيلا يفسد عليه الغرض من الزيارة، وهو مجاملة هذا الجنرال الإفريقي وإزالة الجفوة العابرة بين البلدين، ودخل الاثنان إلى الرئيس الإفريقي، فاستقبلهما بتحفظ مقصود وهو يرتدي زي الماريشالية ويمسك في يده بصولجان ثقيل من الذهب الخالص، وبدأ الدبلوماسي حديث المجاملات العادية، والرجل مازال على تحفظه، ثم أراد أن يذيب جليده فقال له بلهجة خطيرة: جئنا إليك لنلتمس الحكمة لديك ونستشيرك في الموقف الدولي الراهن ونستعين بخبرتك وحنكتك السياسية المعروفة في التعامل معه!

فلاحظ أنيس منصور أن ملامح الرئيس الإفريقي الجامدة قد بدأت تسترخي رويدا رويدا!

وواصل الدبلوماسي حديثه فقال: ولقد تدارسنا قراراتكم الأخيرة.. وهي قرارات خطيرة تعكس بعد نظركم وفهمكم العميق لمجريات الأمور.. ونطلب الحصول على النصوص الكاملة لها للعكوف على دراستها واستجلاء مراميها العميقة!.. فإذا بالرجل يسترخي تماما في مقعده.. وينقل الصولجان الذهبي من يده اليمنى إلى اليسرى باستمتاع شديد.. وقد زالت كل الحواجز وانفرجت الأسارير وظهرت حفاوة الترحيب، وأمر الرجل نائبه الذي يحضر المقابلة بدعوة ضيفيه للغداء، وتسليم الدبلوماسي نصوص قراراته الأخيرة.. وغادر الاثنان مكتبه وسط الحفاوة والإجلال!

وفي الطريق إلى خارج القصر الجمهوري مال أنيس منصور الذي بذل مجهودا كبيرا ليتحكم في تعبيرات وجهه خلال اللقاء على أذن صديقه الدبلوماسي وسأله عن هذه القرارات الأخيرة التي تحدث عنها وفي أي مجال من المجالات هي؟

فإذا بالدبلوماسي الكبير يجيبه هامسا: لا أعرف عنها شيئا، ولا أعرف إذا كان قد أصدر مثل هذه القرارات من الأصل أم لا.. لكن لأنه من زعماء العالم الثالث فلابد أن له قرارات أخيرة، ولابد أن هذه القرارات خطيرة وجليلة الشأن، وقد صدرت في «منعطف تاريخي» تواجهه البلاد، ويتطلب رؤية شاملة و «مرحلة تاريخية جديدة» من مراحل العمل الوطني، لأن «ساعة العمل الثوري» قد دقت، وآن الأوان لبدء مرحلة «الانطلاق» والخروج من عنق الزجاجة، إلى آخر هذه الخزعبلات الشائعة في أدبيات الأنظمة «الثورية» في العالم الثالث!

ولم يتمالك أنيس منصور نفسه من الضحك عاليا قبل أن يغادر أسوار القصر الجمهوري، ولم نتمالك نحن أنفاسنا من الضحك على النادرة السياسية، ولا على الطرائف الأدبية والسياسية الأخرى التي رواها لنا طوال زيارتنا له حتى أشفقنا عليه من إجهاد الكلام، ولم يشفق هو على نفسه منه، ولا من حدة ذكائه ولذعة سخريته اللتين لا يعطيها أنيس منصور إجازة قصيرة حتى وهو في فراش المرض!

وغادرناه ضاحكين بعد أن دخلنا إليه في البداية مشفقين ومتوجسين، وعلمت بعد عودتي للقاهرة أنه قد غادر المستشفى للإقامة في فندق قريب، وأنه سيواصل العلاج الخارجي والتردد على طبيبه لمدة شهرين قبل أن يرجع إلى مصر، فرجوت له اكتمال الشفاء، وتمنيت أن يرجع سالما إلى مشاغباته الأدبية والسياسية، ويواصل تقطير زهور الفكر والأدب وتقديمها من خلال مداد قلمه الساحر، لقرائه.. والمتفقين معه في الرأي والمخالفين على السواء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أرجوك أعطني عمرك

هل يستطيع الإنسان أن يعيش حياته مرتين أو أكثر لكي يتعلم ويجيد فن الحياة ويحسن التعامل مع ما يواجهه في حياته من اختبارات عسيرة وتناقضات كثيرة وألغاز محيرة..؟!

في هذا الكتاب يجيب الاستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع على هذا التساؤل بأسلوبه الإنساني المتميز فيقول " إن الإنسان لكي يحقق هذه الأمنية الصعبة فإنه يحاول أن «يطيل» عمره المحدود بإضافة ما تعلمه الآخرون من دروس حياتهم وتجاربهم فهو بذلك يضيف عصارة أعمار هؤلاء الآخرين إلى عمره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبد الوهاب مطاوع

- **مدير تحرير الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب**
- **حصل على جائزة مؤسسة علي أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفي يكتب في المسائل الإنسانية**
- **يكتب باب بريد الجمعة الإنساني في الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982 ويشرف على باب بريد الأهرام اليومي بصحيفة الأهرام**
- **صدر له أكثر من 37 كتابا، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها،، ويتضمن البعض الآخر قصصاً قصيرة ومقالات في أدب الرحلات.**
- **له ثلاث مجموعات قصصية هي: «أماكن في القلب» و «لا تنسني»، و «الحب فوق البلاط».**

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

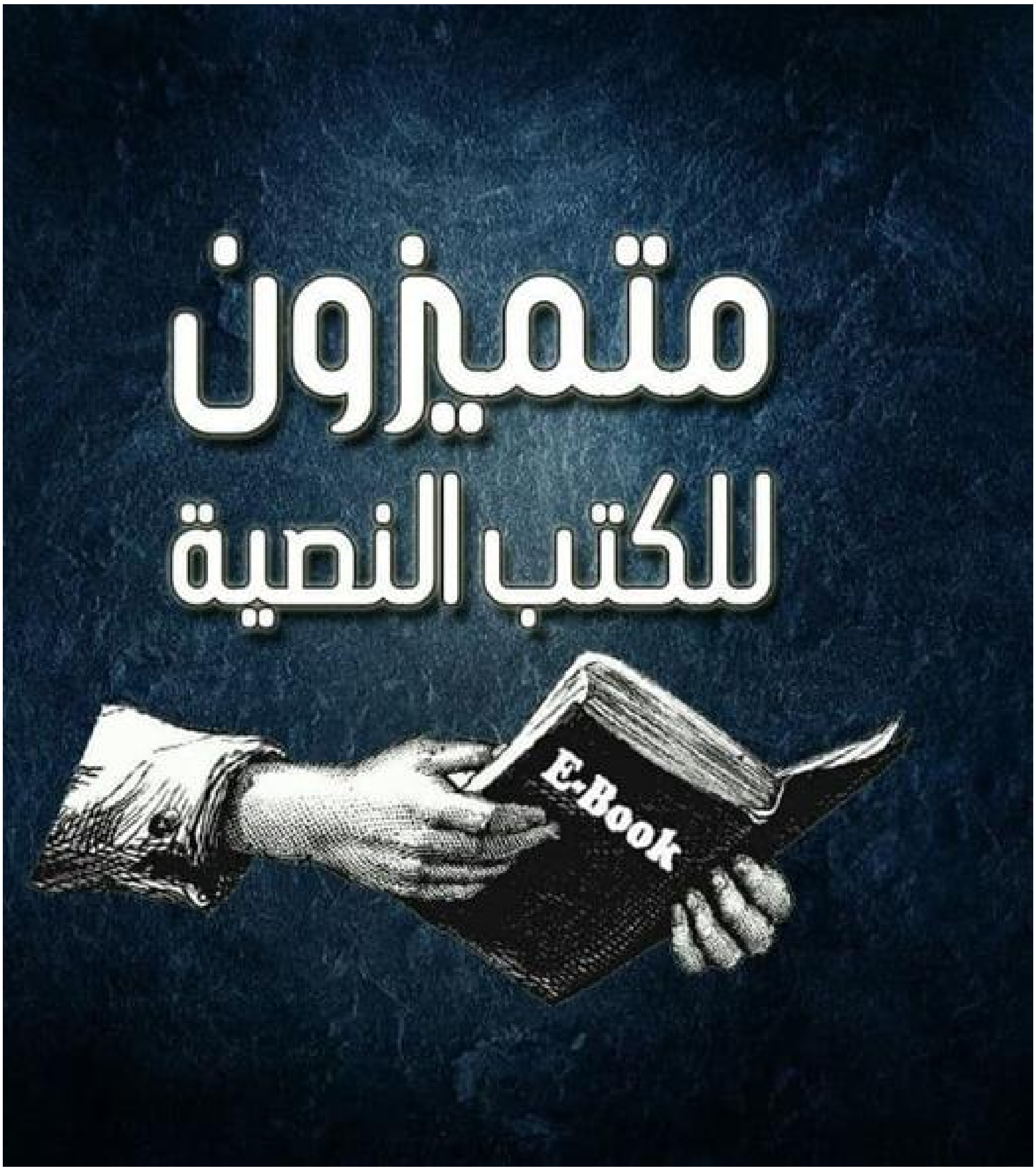
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

مقدمة الكتاب..

وَدِّعْ هوَاك

وكاندة النوم غير المريح

ذكرى ليلة صيف

«فكيت» الجنيه؟!

ممنـوع «الزِّعيـقْ»

سأقول «حكمـة»

هـدوء مـن فضـلك

نعم.. لا.. ربما!

الأمـل الأخير

هـات «شلـن»

أرجوك.. أعطِني عمرك

إزيك.. يا «ادّلعدي»

الرقص بالعصـا

لن أركب السفينة

صدفـة سعيـدة

ولا فخر

أحبـاء الحـياة

غريب.. في بيتي!

القرارات الأخيرة

أرجوك أعطني عمرك

عبد الوهاب مطاوع

الفهرس: